زيد مطيع دمّاج

الرهينة

رواية

دار الاداب - بيروت

زيد مطيع دماج

الرهينة

الطبعة الأولى
كانون الثاني (يناير) ١٩٨٤

كم هي جميلة هذه المدينة! شاهدتها لأول مرة عندما أُخذت من قريتي ووُضعت في قلعتها (القاهرة) بين رهائن الإمام..

أخذني (عكفة)[1] الإمام ذوو الملابس الزرقاء عنوة من بين أحضان والدتي ومن بين سواعد أفراد أسرتي المتبقّين.

لم يكتفوا بذلك بل أخذوا حصان والدي تنفيذاً لرغبة الإمام.

كان يوماً معتدلاً. خفّت فيه حدة هطول الأمطار لتتيح لنا مشاهدة المدينة والقرى البعيدة المتلألئة فوق الجبال.. كان الجوّ صافياً. إنّه (علان)[2] شهر التأهّب للحصاد.

كنت مع زميلي (الدويدار)[3].. الدويدار (الحالي)[4] كما يسمّونه- على سطح دار (النائب)[5] العالي.. لا أدري لماذا أحببت صداقته.. ربما لتقارب السن... وربما لعملنا المشترك.

---

(١) عكفة: حرس الامام الخاص.

(٢) علاّ ن: نجم زراعي يأتي قبل حصاد الغلال وهو أحب نجوم الزراعة في اليمن.

(٣) الدويدار: صبي حاضر البديهة يستخدمه الأمراء والحكام في قصورهم.

(٤) الحالي: الجميل.

(٥) النائب: الوالي- نائب الإمام.

كنت قريب العهد في منزل (النائب)، نائب الإمام و(عامله)[1] على المدينة وما يتبعها، عندما أخذوني قسراً من قلعة القاهرة، معقل (الرهائن)[2]، وأدخلت من بوابة قصر النائب وأنا أتذكر نظرات الازدراء التي ودّعني بها زملائي (الرهائن).

كنت على علم بأن بعض (الرهائن) قد أخذوا إلى قصور الإمام وبعض نوابه وأمرائه (دوادرة). وكنت أسمع أن بعضهم قد تمكّن من الفرار والبعض قد فشل، فكبّلوه بالقيود الحديدية في قلعة القاهرة مدى الحياة..

الشيء الذي لم أكن أعرفه هو معنى (الدويدار) وما هو عمله؟. ولم أكن أعي أيّ تفسير يقال.. ربما لصغر سنّي.

- من شروط (الدويدار) أن يكون صبياً لم يبلغ الحلم.

هكذا كان يقول أستاذنا (الفقيه) السجين أيضاً معنا، والمكلّف بتعليمنا القرآن والفروض والطاعة في قلعة القاهرة معقل الرهائن.

- يقوم (الدويدار) حالياً بعمل (الطواشى)[3].

وعندما تبدو علينا الحيرة يقول:

- و (الطواشى) هم العبيد المخصيّون..

فنزداد حيرة أكثر..

---

(١) العامل: مدير الناحية.

(٢) الرهائن: أبناء المشايخ ورؤساء القبائل الذين يعتقلهم الإمام لضمان ولاء آبائهم.

(٣) الطواشي: الخادم الخصيّ، العبد الخصيّ

- والخصي.. هو من تُضرب خصيته..

ونحتار أكثر أيضاً من جديد متألمين لهذا العمل القاسي فيقول:

- لكي لا يمارس عملاً مشينا.. جنسياً. كمضاجعته نساء القصور.. أي بمعنى آخر يجب أن يكون فاقداً لرجولته.. أي بمعنى آخر.. عاجزاً.

ونحتار أيضاً.. فيقول بغضب:

- هذا يكفي.. مفهوم؟

- غير مفهوم يا (سنَّا)[1] الفقيه..

يقوم غاضباً لردّنا الجماعي الذي كان يعتبره وقحاً أو وقاحة.. ونصيح بنشيدنا المعتاد:

- غفر الله لك يا سيدنا... ولوالديك مع والدينا... الخ.

* * *

كان بعض الرهائن ممن مارسوا أعمال (الدويدار) ثم عادوا إلى (قلعة القاهرة) مرة أخرى لبلوغهم الحلم كما يقول الفقيه- يحكون أشياء غريبة وعجيبة علينا.

وكنت ألاحظ أن معظم العائدين منهم إلى القلعة قد تغيّرت ملامحهم... حيث غدوا مصفرّي الوجوه بالرغم من ظهور نعومة شاملة في أجسامهم مع شيء من الترهّل وذبول في غير أوانه..

كنت ألاحظ أيضاً اهتمام حرس القلعة بهم.. هؤلاء ناعمو

(١) سنَّا: لقب مدرّس الكتاب (مختصرة من سيدنا).

اللمس رقيقو الأصوات... بملابسهم النظيفة المرسلة حتى الأرض... وبتلك (الكوافي) المزركشة التي حاكتها نساء القصور فوضعوها على رؤوسهم لتُخفي شعرهم المجعّد المشّط... الذي تفوح منه رائحة الدهون المعطرة التي يستنشقها بلذّة أفراد الحرس... والفقيه مدرّسنا أيضاً الذي يبالغ في مراعاته لهم بسماجة أكثر مما يلزم... مما كان يدفع ببعضنا للاحتجاج والتذمّر لهذه المعاملة المتميزة فيصيح غاضباً:

- أوباش.. اخرسوا يا متوحشّون.. أعوذ بالله من أشكالكم وطباعكم أيضاً!.

- .. غفر الله لك يا سيدنا.. ولوالديك مع والدينا.. يا حنّان يا منّان.

وينفضّ الرهائن من الدرس ويتّجهون إلى سطح السور المطلّ على المدينة يمرجحون سيقانهم في الهواء.. وينظرون إلى الأفق البعيد، كل يبحث عن قريته وراء الجبال..

كان (الفقيه) مدرّسنا، رغم وجود العصا في يده، لا يجرؤ على رفعها على أحد منا.

حاول مرة وضرب بها أحد الرهائن.. فأدى ذلك إلى كسر ذراعه ونتف لحيته.. ولم يعاود ممارسة ذلك مرة أخرى...

* * *

عندما وصلت إلى دار (النائب).. فرح صديقي (الدويدار) بي.. وغمرته سعادة لم أكن أتوقّعها..

وبدأ يعرّفني على كل جزء من القصر الواسع وملحقاته.. وكنت أصادف، وأنا معه، نساء من مختلف الأعمار وعلى مستويات متفاوتة من الجمال والهندام وحسن الملبس...

كنت أنزوي عندما كان يقوم بتعريفي بهن:

- هذه عمة النائب..

- ... .

- هذه ابنة النائب.

- ...

- هذه اخت النائب.. المطلقة.

- ...

- وهذه زوجة النائب الثانية.

- ...

- وهذه الأولى.

- ...

- وهذه الخادمة الجديدة.. إنها جميلة كما ترى.. أليس كذلك.؟

- ...

- وهذه القديمة.

- ...

- وهذه التي تحلب الأبقار.

- ...

- وهذه المربّية.. مربية الأطفال.. و و و...

ولم أكن أجيب أيضاً.. كنت أنكمش حين يربتن على كتفي.. وأنفر حين تمتد أيدي بعضهن لقرص وجنتي أو فرك شفتي بتلذّذ...

كنت أتقزز من ذلك... بينما كان زميلي يضحك ملء شدقيه ويهرع بي من السلالم الواسعة المرصوفة بالحجارة المربّعة ليقودني إلى (الحمّام) التركي.

سراديب وقباب وممرات كلّها مرصوفة أيضاً بالحجارة المربّعة السوداء، ملحمة «بالقضاض» المصنوع من النورة البيضاء...

البخار يتصاعد بكثافة عند (القمريات)[1] الرخامية الجاذبة للضوء.. تردّدت في الدخول.. لكن زميلي قال:

- لا تخف.. ليس اليوم للنساء.!

- للنساء أو الرجال... لن أدخل هذا المكان مرة أخرى.

- هل تعرف أننا الوحيدان في هذا القصر الذي يحق لنا دخوله في أي وقت؟ سواء كان ذلك يوم النساء أو يوم الرجال؟

شعرت بجسمي يقشعر وقلت:

- لن أدخله أبداً.

قال وقد جذبني خارجاً نحو اسطبل مهجور للخيل:

- سوف تدخله مستقبلاً!

بدأ يشوّقني بحكايات لمشاهدات عاشها داخل ذلك الحمام وعن

(١) القمريات: نوافذ رخامية.

النساء.. الكبيرات والصغيرات والعوانس منهن بالذات.. وكيف يغمرهن الفرح بمقدمه لخدمتهن.

* * *

كان اسطبل الخيل واسعاً.. تنبعث منه رائحة ذكّرتني (بسفل)[1] منزلنا في الجبل.. رائحة (روث) وبول البقر والثيران ممزوجة برائحة التبن (والعجور)[2].... وأصوات الدجاج المنزعجة لقدومنا بينما كانت تنبش بأظافرها أكوام السماد باحثة عن الحشرات...

كم كان والدي حريصاً على بقاء (النواقيس) النحاسية على رقاب الثيران!

كان وقع أصواتها الموسيقي يطربني كلما مررت (بسفل) دارنا... أو في المراعي أو عند النبع...

حتى الجمال والحمير في جبلنا كانت تعلق على أعناقها تلك الأجراس النحاسية القديمة التي تحذر الناس والأطفال بالذات في الطرقات والأزقة...

لم أشاهد في اسطبل النائب، ذلك الواسع، سوى بغلتين فقط... أما أبقاره الحلوب فهي في مكان قريب من باب قصره الخلفي...

وعندما تملكتني الدهشة أسعفني زميلي (الدويدار) بالإجابة قائلا:

---

(١) بسفل: أسفل المنزل

(٢) العجور: قصب الذرة (علف البهائم).

- الخيل يأخذها الإمام ووليَ عهده سيف الإسلام الأمير.. إلى قصورهم... ولا يبقون سوى بعض البغال والحمير...

- ولكني لا أجد حماراً واحداً؟.

- أمثالي وأمثالك... والآخرين!..

لم ترق لي عبارته التي كان يعدّها نوعاً من المهازحة الظريفة، وقد توقّفنا عند باب الأسطبل لنواجه فناء القصر الواسع حيث اكتشفت أنه مكوّن من عدة قصور... منها القديم ومنها الجديد.. قال زميلي:

- تلك الدار القديمة المبنيّة بالآجر... مخصصة لأخت النائب المدلّلة والمطلّقة... وهي جميلة.

- وكل هذا من أجلها؟.

- لأنها من أمّ أخرى... تركت لها والدتها ثروة أكبر من ثروة والد النائب.

لم أسأل بعد ذلك فقد انشغلت بالتطلّع إلى الأماكن الأخرى فقال:

- اسمها حفصة... (الشريفة)[١] حفصة.

أطرقت مستمعا.. فتمهّل قليلاً ثم قال بعد أن بلع تنهيدة كانت ستخرج من جوفه:

- استطاعت بشبابها أن ترغم ابن عمها على أن يطلّقها...

---

(١) يطلق لقب الشريفة على بنات الأسر التي تدعى نسبتها إلى الرسول الكريم (ص).

وظللت مستمعاً فاستمر قائلاً:

- وحدثت أزمة كبيرة... تدخل فيها مولانا وليّ العهد لصالحها...

لم أجبه وان كنت قد حاولت التساؤل عن سبب الطلاق لكنه أسترسل مجيباً:

- كان زواجها من ابن عمها في صالح النائب.

هززت كتفي فاستمر قائلاً:

- لأن النائب متزوج بأخت ابن عمها.

ابتسمت لهذه الفزورة اللغز فقال:

- وخوفاً من أن يؤول الميراث إلى الغير.. تم الزواج.. وسيكون الإرث متوازناً...

أعنت اهتزاز كتفي بابتسامة استفسار فقال:

- لكنها رفضت ابن عمها منذ الليلة الأولى... كان يسهر عادة حتى الفجر مع القات....

نفضت جمود استفساراتي بأن قلت سريعاً:

- ألهذا السبب تم الطلاق؟

ابتسم وقد انتشى لحضوري المباشر معه قائلاً:

- ليس هذا هو السبب... هنالك أسباب أخرى مهمة... منها... عجزه التام عن نيلها... لضعف فيه متأصّل... ولكبر سنّه أيضاً.. فلديه عدة زوجات وعدة أبناء لا حصر لهم...

لم أندهش لذلك ولم أستفسر أكثر من اللزوم، فقال ونحن نمشي نحو ذلك المنزل وقد شدّني كلامه:

- هي صغيرة.. أصغر أبناء العائلة. وكان والدها يحبّها ويدلّلها.. محبّة في والدتها التي كانت أصغر زوجاته وأجملهن وأكثرهن ثراء...

لم أشعر بالإرهاق ذلك النهار... بالرغم من أن صاحبي قد جال بي معظم جوانب عالمه العجيب...

كان فرحاً ومرحاً.. متشبّثاً بي.. تغمره السعادة لوجودي معه، فكم أصوات نادته دون أن يجيبها، أو يأبه لها!.

كانت غرفته تقع في منعطف أحد السلالم الواسعة... جذبني إليها وهو يقول:

- هذه غرفتنا...

- غرفتنا؟

- نعم غرفتنا!

اتجهت صوب النافذة الصغيرة الوحيدة داخل الغرفة.. استرحت مقرفصاً بجوارها وأمعنت النظر بعد ذلك في داخل الغرفة.. كان قد خرج فجأة.. في الغرفة فراش صغير قد برزَ التبن المحشوّ به من ثقوب عدة.. ولحاف شبه صوفيّ أسود اللون معطّف عند مرقد رأسه فوق مخدّة متّسخة يكسل أن يغسل كيسها القطنيّ المزركش...

يحفّ بزاويته تلك، صندوق خشبي ملوّن بأصباغ رخيصة... قد وضعه بجانب الفراش المهترئ لمنعه من الانزلاق أثناء نومه، ويسهل عليه فتحه متى شاء، ويحفظ بداخله ملابسه وأشياءه الأخرى...

توقف نظري عند بعض الصور التي ألصقها على الحائط، ولا أدري كيف استطاع لصقها وان كان يخامرني الشك بأنه قد استعمل في ذلك لعابه.

صور متكررة لفتيات جميلات ذهبيات الشعر... زرق العيون لم أشاهد لهن مثيلا في حياتي...

قال لي مرة إنه يقوم بقصّ صورهن من بعض الصحف والمجلات التي تصل إلى النائب من (بلاد مدخل)[1]... كانت هنالك أيضاً بعض صور لأشخاص بألبسة عجيبة.. كان يقول كالمعلم العارف:

- هذه صورة (الفوهرر).. هتلر... وهذا (موسليني).. ملك الطليان.. أما هذا الشيخ الوقور فهو (المختار)... عمر المختار...

كان مزهواً بأنه يعرف الكثير مما أجهل.. فيزداد تعالياً عندما يكلّمني عن سماعه لأخبار العالم من مذياع النائب.. وبأنه الوحيد الذي يقوم بتشغيل ذلك الجهاز الذي يلتفّ لسماعه حشد كبير من الناس داخل القصر وخارج أسواره أيضاً.. يعرف كل الأوقات وجميع المحطات والرموز والألغاز.. كان يضحك مني ساخراً وهو يقول:

- الآن ستدقّ ساعة (بج بن) معلنة الساعة الرابعة مساءً بتوقيت (جرينتش)..

- الآن موعد تعليق (يونس بحري) من إذاعة (برلين)..

كنت أضحك بتعجّب لهذا الكلام الجديد علي...

---

(١) (بلاد مدخل): كانت تطلق هذه التسمية على البلدان الخارجية وقتئذ.

أحضر لي فراشاً ولحافا.. وسألني، قبل أن يلقي بهما من على كتفه، عن أي زاوية أختار داخل الغرفة.. وأجبته مازحاً:

- الضيف في حكم المضيف.

ضحك وقد رمى الفراش واللّحاف في الزاوية المقابلة له.. ثم جلس بجواري.. وبدأ يحكي من جديد:

- أنت لا تعرف طبعاً صندوق الطرب؟

لويت شفتيّ مستغرباً للكلام الجديد.. فقال:

- صندوق الطرب.. عبارة عن جهاز.. أكبر من الراديو.. لكنه يصدر الأغاني الجميلة.. [(للقعطي) و (العنتري) و (الماس) والشيخ (علي أبو بكر)....][1]

في الحقيقة سرد لي أسماء ربما سمعت عنها فقط، لكنني لم أسمعها تغنّي مطلقاً.. وسرد لي أسماء أخرى عرفت فيما بعد أنها لمطربين من بلاد العرب الأخرى..

لا أدري ما الذي دفعه بحماس لجذبي والسير بي إلى مكان رائع في القصر... مرتّب في غاية النظام والنظافة.. وأجلسني على مفرشة فارسية ثم أشعل لمبة غازية عرفت أنها (لمبة الألف)[2] المضيئة بشعلتها الدائرية التي كان لدينا في منزلنا واحدة منها أخذها جدي إلى ديوانه من (حملة لحج)[3] مع (سعيد باشا) القائد

---

(١) أسماء لفنانين يمنيين راحلين.

(٢) لمبة الألف: مصباح غازي.

(٣) حملة لحج: حملة عسكرية يمنية بقيادة تركية ضد الانجليز في منطقة لحج اليمنية التي كانوا يحتلونها

التركي. وكانت تضاء لنا في شهر رمضان فقط... وقد أخذها (العكفة والسواري)[1] فيما أخذوا من بيتنا.

وبدأ صاحبي يحرك صندوق الطرب الكبير المصنوع من خشب الأبنوس.. ووضع الاسطوانة الأولى والثانية والثالثة.. حتى بدأت أمل فتثاءبت..

عدنا.. وبدأ يكمل مشواره من جديد.. فقلت متأدّباً:

- ألا ترى بأننا سنمكث معاً وقتاً طويلاً.. وأخاف أن لا نجد ما نتكلم فيه مستقبلاً؟!.

ضحك وقد غشي الظلام المدينة والقصر وغرفتنا أيضاً.. حيث لم يكن لديه ما نستضيء به سوى فانوس صغير قد علاه الصدأ مرمياً في زاوية من الغرفة.. تعلوه الأتربة والأوساخ.. والحشرات الميتة.. فأصبح وجوده وعدمه سواء..

ارتمى على فراشه بعد أن أطمأن على وضعي.. وبرغم التعب والإرهاق فلم أستطع النوم.. ظلت عيناي مشدودتين إلى النافذة الصغيرة والوحيدة الصادر منها ذلك البصيص من نور النجوم..

سمعت وقع أقدام على السلالم.. خفيفة وحذرة.. توقّف ذلك عند باب الغرفة غير المقفل بإحكام.. ثم سادت لحظة صمت سمعت خلالها صوتاً خافتاً ينادي:

- عبادي.. عبادي.. يا عبادي.. يا حالي.. بس.. بس.

كتمت أنفاسي وقد أحكمت اللحاف حول وجهي.. شعرت به

(١) السواري: سلاح الفرسان.

قد قام من مرقده... وتكرّر الصوت هذه المرة من داخل الغرفة.. تأكدت أنه قد قام مضطرباً ثم بتروٍّ قال:

- من؟ ماذا تريدين يا (زهراء)؟

لم تجبه.. بل شعرت أنها قد اقتربت منه وجلست بجواره بينما قال:

- ألا ترين أن لدي ضيفاً هذه الليلة؟

- أعرف ذلك.. وما الذي جعلك تُرقده لديك.. ففي الدار غرف لا حصر لها كعدد أيام السنة..

لم يجبها.. وشعرت بعد ذلك بأنها تقترب منه أكثر.. تحوّل همسها إلى فحيح ملتهب.. كان يحاول أن يثنيها متعلّلا بوجودي ولكن كل محاولاته باءت بالفشل.. وأصبح الفحيح مشتركاً..

لم أشعر بالخوف في حياتي كهذه الليلة.. وانتهى الفحيح لتأخذ منه قبلة علا صوتها مدوياً مما جعله ينزعج خوفاً من أن أكون متيقظاً وتسللت خارجة..

شعرت به يتوجّه نحوي بعد ذلك ليطمئنّ.. ثم همد راقداً وقد علا شخيره ليطغى على أصوات الديكة وكلاب المدينة التي زادت من سهادي..

وتجلجل مع الفجر أصوات العساكر والحرس بأنشودة الصباح الباكر المعتادة..

- يا الله رضاك.. يا الله رضاك..

وارضى علينا برضاك..

- واحنا طلبناك عظيم الشأن..

يا فاتح أبوابه

نهضت من نومي الساهد.. كالمضروب.. جميع مفاصل جسمي منهكة.. فتحت النافذة الصغيرة لأرى شبه سحابة وباء صفراء تخيّم على المدينة..

كان صاحبي قد نهض مبكراً قبلي بعد أن رتّب فراشه.. ثم عاد وفي يده (جمنة)[1] صغيرة من القهوة وجفنة والقى بتحية الصباح باسماً كعادته.

- عساك نمت مرتاحاً..

هززت رأسي مجيباً.. أصلحت من ملابسي واتجهت معه إلى (دكة)[2] العساكر عند البوابة الرئيسية للقصر.. شعرت بأن ذلك أنسب مكان يلائمني حتى تنتهي هذه الوحشة..

كان العسكر خليطاً من جند (نظام)[3] وجند (براني)[4] ببنادقهم الموزر والصابة والبشلي الطويلة.. وكان جند (النظام) أكثر دقة وانضباطاً.. حتى في مظهرهم ومرقدهم ومأكلهم ومشربهم..

كان (كاوش)[5] جند النظام على يمين البوابة.. تعلوه غرفة

---

(١) جمنة: إناء فخاري تُغلى فيه القهوة اليمنية من قشر البنّ.

(٢) دكة: مصطبة

(٣) نظام: جنود الجيش النظامي.

(٤) براني: ما يشبه جنود الاحتياط.

(٥) كاوش: العنبر المخصص لإقامة الجند.

حراسة يسكنها (البورزان)[1] الذي قيل بأنه أحتلها نهائياً ورفض الخضوع حتى لأوامر النائب بإخلائها..

أما (كاوش) جند البرّاني فكان خارج البوابة على يسارها يطلّ على الميدان الفسيح الذي تطلّ عليه شجرة (طولقة) عملاقة من الجانب الآخر تظل سبيل ماء تعلوه قبة صغيرة بيضاء ورواق مصلول بالحجارة يقوم النائب فيه باستعراض شكاوى الرعية اليومية مع عسكره وكتبته وحشمه وخدمه..

استقبلني الجند نظاماً وبرّانية بكرم واضح اندهش له صاحبي.. ويبدو أنهم كانوا من منطقتي.. يعرفون أسرتي.. وابن من أكون..

واتكأت على حجر كان معداً لهذا الغرض.. بينما بدأت الحياة تدبّ في فناء القصر وملحقاته الجديدة.. بعضها كانت قصوراً لآباء وأجداد النائب..

وكان السور المحيط بكل ذلك عالياً.. لا تنفذ منه سوى فروع الأشجار الباسقة..

وبدأت النوافذ العديدة تفتح.. بعضها بصوت مزعج.. تشرئب منها بعض وجوه نساء بشعورهن المجعدة وبعضهن بما يغطي ذلك.. مجموعة عجيبة ومتنافرة من النساء.

---

(١) البورزان: ضارب النفير.

كان الجند قد استقبلوا صاحبي الدويدار (بزامل)[1]:

- يا دويدار قد أمك فاقدة لك..

.. دمعها كالمطر..

كم كنت معجباً برشاقته ونشاطه.. ويبتسم.! كان ذكياً سريع البديهة قليل الكلام.. حاضر النكتة.. يعرف نفسية كل فرد من شخصيات القصر وملحقاته.. نساء ورجالاً.. بل وأطفالاً أيضاً.. كذلك عساكر البوابة.. نظام أو برانية.. والبورزان أيضاً..

كان يحوم كالنحلة.. من القصر إلى ملحقاته ثم يعود ليجلس بابتسامته المعتادة قليلاً ثم يقوم من جديد يدبّ ويحوم.. وهكذا..

جلس بعض الجند حولي يتفحصونني بدقة.. وبعضهم الآخر يفرش ابتساماته الواسعة السمجة على شفتيه المتدلّيتين.

لم أشعر بأنهم غرباء عني.. ففي معقل الرهائن.. قلعة القاهرة.. أناس مثلهم.. زملاؤهم.. كان يطيب لي المكوث معهم لأن معظمهم من منطقتي ربما كهؤلاء. يعرفون أسرتي وعشيرتي وقبيلتي.. وابن من أكون.

كم كنت أحلم بأن أصبح جندياً مثلهم، ولو حتى جندياً (برّانياً).. أحمل السلاح وأنظّفه كل صباح كما يفعلون.. وأزيّنه بقطع من الفضة أو النحاس وبرقع من القماش المزركش.. وأدهنه بزيت نخاع سيقان الكباش (المحنوذة).. و(أتنفّذ) على الرعية لكي أكسب رزقاً وفيراً..

(١) الزامل: نشيد جماعي تقليدي.

وأطل (البورزان) من على سلم غرفته الطينية، وحيّا بواسطة بوقه النحاسي زملاءه.. ورغم بلوغه سن الستين وربما أكثر، إلا أنه يبدو وسيماً بحيوية كأنه شاب مراهق.. كان الوحيد حليق الذقن.. أما شاربه المختال بعنترية هلالية فقد كان مصبوغاً بالحنّاء..

كان ملبسه نظيفاً على وجه العموم لأنه أبيض اللون وهو اللون المحبّب إليه.. كل شيء فيه مرتّب بانسجام متناهٍ في الدقّة.. من عمّته حتى حذائه التقليدي الذي كان يتباهى به على زملائه الحفاة من الجند النظام أو البراني.. أو (الطبشية)..

كان الوحيد الذي يملك حذاءً (عدنيّاً) يحدث صوتاً تصرّ له الأسنان.. ويذكرني بالنشاء الذي يضاف إلى المحلبية في شهر رمضان..

تأملته وهو يقفل باب نوبته.. ثم ينثني كعصفور مرح نحونا.. كانت بندقيته موشاة بالحلى الفضية وبقطع من العملات النقدية الأجنبية المخرومة من وسطها.. يتأبّطها على كتفه الأيسر وقد أحتزم (بجنبيّة) ذات رأس (صيفاني) أصيل مشدودة بقوة على خصره الدقل.. و (طياره)(١) المتدلى من على كتفه الأيسر من الأمام والخلف مملوء بالذخيرة (الصاغ سليم)(٢) وقد تدلّى من خصره بوق نحاسي مزين بالذوائب الملوّنة بلون الذهب من حزامه ليستقر على فخذه الأيمن، بينما كان مئزره النظيف لا يتعدّى

(١) الطار: حافظة جلدية لرصاص البندقية تربط من الكتف إلى الخصر.

(٢) الصاغ سليم: جديدة لم تعبأ مرة ثانية.

ركبتيه حيث تظهر عضلات ساقيه المفتولة الخالية من الشعر والمدهونة بما علق في يديه من شحوم وزيوت وجباته الدسمة الدائمة.. والمصبوغ بها أيضاً حذاؤه العدني وشعر رأسه الطويل وكذلك رأس جنبيّته..

وضع بندقيته بلطف وحذر على جدار البوابة وجلس بجوارنا..

تساءل عني بنظراته.. كانت عيناه مكحولتين بكثافة واضحة بالإثمد الأسود وبطريقة بارعة في الإغراء والجاذبية.. وبصوت شجيّ:

- يا دويدار..

قد أمك..

فاقدة لك..

دمعها كالمطر..

قلت لصاحبي وقد استراح وأراحني وأنا أتأبط ذراعه:

- لم تعرّفني بزهراء!

نظر إليّ ملياً ثم ضحك وقد ترك ذراعي قائلا:

- هي أخت النائب.. العانس!

- عانس؟

- نعم.

- ولكن...

- ولكن.. لها طرقها الخاصة..

- لم أفهم!

- تحفظ الأيام القمرية بدقة!

لم أفهم حقيقة كلامه بينما جذبني نحو دار (حفصة) وهو يقول باسماً بمكر:

- دعك من (زهراء).. هنا يسكن أجمل مَنْ خلق الله.. في هذا البيت..

- تعني الشريفة حفصة أخت النائب؟.

- نعم.. هي الصغرى ولها جاذبية تشدّ أي مخلوق نحوها ليقع في حبها.. ويهيم في هواها.. ويموت أيضاً..

- إلى هذه الدرجة؟..

- نعم.. مسكين ابن (كامل) سائق النائب المقرب.. مات في حادث غامض.. قيل ذلك.. وفي اعتقادي أنه انتحر من أجلها.. هذا اقتناعي.. وهو صحيح رغم معارضة الآخرين.

- أهي قاسية إلى هذا الحد؟!

- ليست قسوة كما فهمت.. إنما وجود حاجز كبير، وربما أشياء أخرى سأشرحها لك فيما بعد.

لم أحاول أخذ المزيد من المعلومات منه، فقد وصلنا إلى الباب الذي فتحه بجرأة.. ثم أخذ بيدي إلى الدرجات الأولى، وأنا أحاول أن أمانع وقد شعرت برهبة طاغية..

كنت أتوقّع أن أجد الشريفة حفصة في كل منعطف من منعطفات السلالم الطويلة... لكنني وجدت أن الدار مليئة بنساء يمكن أن يكنَ من ضمن حشم وخدم الشريفة حفصة..

ألقى صاحبي بتحياته على كل من التقينا بهن مع تعريفهن بهويتي الجديدة (كدويدار).. العملية نفسها في كل دار!

كانت (المنظرة)[1] تطلّ على الساحة.. حجرة صغيرة وخلفها باب طرقه صاحبي بأدب جمّ ثم فتحه قبل أن يؤذن له، وجذبني إلى داخل المنظرة المفروشة بالسجاد الثمين الذي لم أشاهد مثله في حياتي.. والستائر مرفوعة والطنافس النحاسية والفضية تملأ الأرفف الجّصيَة عرض الحوائط..

كانت (الشريفة) متكئة على حافة النافذة في رأس المنظرة وقد برز شعرها الأجعد من خلال ثنايا منديل برتقالي اللون.. وتراءى جسدها الأبيض من خلال ثوبها الشفّاف الحريري.. وكانت متكئة بإحدى يديها على النافذة وقد مدّتها إلى الامام.. أما الأخرى فكانت على خدها وهي سابحة بنظرها وفكرها نحو الساحة..

تأملت يدها.. كانت مزيّنة بأساور من الذهب ومزركشة بالحناء والخضاب الأسود المتعرّج على أنامل كالشمع الأحمر الممزوج بلون اللبن الصافي..

استدارت كنمرة مسترخية الملمس وقد أصلحت من ثوبها على ركبتيها وغطّت ساقيها.. كنت خلف صاحبي.. صاحبي هذا الذي سيورطني في مواقف حرجة أنا في غنى عنها.. لمحت نظرتها نحوي مستفسرة بهاتين العينين الواسعتين المكحلتين نجاذبية متوهّجة..

---

(١) المنظرة: غرفة في أعلى البيت.

لكنها أشاحت نحو صاحبي.. وبدأت تحادثه وكأن لا وجود لي!

احتفظت بمكاني خلف صاحبي بأدب وحياء فُرضا على.. ولم أحاول حتى مجرد التدخّل في تنبيهه لكي نغادر هذا المكان المهيب.. وبعد فترة قالت بصوتها الرخو العظيم:

- من هذا؟
- دويدار جديد يا مولاتي.
- من أين جيء به؟
- من القلعة.
- هه.. رهينة؟
- نعم.

وسادت فترة صمت. كنت في مكاني خلف صاحبي مطرقاً بنظري نحو الأرض متأهّباً للمغادرة في أي لحظة يسعد بها صاحبي.

اقتربت منا فجأة وقد أمتشق قوامها كأنها شمعة ملوّنة تذيب كل نشوات اللذة الطاغية.

لمست بيدها رأسي وقالت:

- ما اسمك؟

لم أجبها.. فأسعفني صاحبي بلباقة الدويدار.. نظرت إليّ وكنت مشدوهاً بها.. لم أجبها أيضاً ولم تحاول تكرار ذلك.

وغادرنا المكان وكأن أحد جبال اليمن الكبرى قد أنزاح عن صدري..

لم أنم تلك الليلة.. تقلّبت من زاوية إلى أخرى.. أصلحت

مخدّتي تحت رأسي عدة مرات دون جدوى.. قمت إلى النافذة.. شبه النافذة لأتأمل النجوم وبصيصاً من ضوئها.. مع أصوات متفرّقة وبعيدة لكلاب تنبح.. ولكن دون جدوى.

صورتها ما زالت أمامي رغم كل ذلك.. بصوتها الرخو المبحوح الذي يملأ مسامعي. تخيّلتها بابتسامتها المتسائلة عني؟ عمن أكون؟ ابن من أنا؟ ما اسمي.؟ ومن أي منطقة أتيت؟.

تساؤل عادي وعابر.. ضخّمه خيالي المراهق.. ربما لا ولم تعرني أيّ اهتمام كما تخيلت!

لم تشعر بي حقاً.. ولا بوجودي داخل غرفتها مع صاحبي. هذا أكيد.

ما زال قدُّها الفارع يتماثل أمام مخيلتي وهي تتلوّى كأفعى سلسة الملمس.. وربما كغانية من الحور العين..

لم اكترث تلك الليلة لفحيح زهراء مع صاحبي وهمسها المثير الذي كاد في وقت مضى ان يصيبني بالجنون.

لا أدري كيف علقت في كل حواسي وكياني ومشاعري هذه (حفصة).. نعم.. الشريفة (حفصة)!

* * *

استيقظت ذات صباح.. كان صاحبي قد قام مبكراً كعادته.. يتجوّل بين أرجاء القصر وملحقاته.. اتجهت إلى البوابة الرئيسية حيث يتجمّع العساكر النظام والبراني والبورزان عادة.. كان البورزان قد نزل من على درجات نوبته الحصينة كالعادة مكتمل

الهندام كأنه في ريعان الشباب.. وسألني أحدهم مستفسراً:

- أين الحالي؟

استغربت كلمة الحالي التي تكررت أكثر من مرة كما أتذكر.. لم أجب بينما قال زميل له:

- لقد اكتفى بصاحبه.. الرهينة.

لم أحاول حتى مجرد إشعاره بالاهتمام. قال بينما اقترب مني آخر وقال:

- من أين أنت؟

- من الجبل.

- اليمن كلها جبال!

لم أجب..

تقدم آخر وآخر وأصبحت حلقة.. كنت أنظر نحو الساحة عسى أن يأتي صاحبي...

- قبيلي[1]؟

لم أجب..

- ابن شيخ؟. طبعاً!.

لم أجب أيضاً..

قال أحدهم لزميل له:

- اختيار غير موفّق لدويدار يعمل في منزل مولانا النائب..

- المفروض أن ينتقوا (الدوادرة) من المدارس أو من المدن..

قال آخر:

(١) قبيلي: تطلق على الفلاح نسبة إلى القبيلة.

- لا داعي لرهائن القلعة..

ونطق البورزان وقد مسح ساقيه بيديه بعد تناول الفطور المشترك:

- لماذا اختاروك؟

- لا أدري!

- ألم ترفض؟

- ولماذا؟

- لأنك ستكون دويداراً.

- قلت لنفسي.. أهرب من سجن القلعة إلى المدينة..

نهض وقد نظر إليّ بشزر ثم قال:

- لا يبدو عليك أنك تفهم عملك الجديد..

- ما هو؟

- ستعرفه قريباً!.

وأقبل أحد الخدم يبحث عني.. أخذني معه بين قهقة العساكر المصحوب بزاملهم المعهود.. وسرت خلفه.. قال لي ونحن نرتقي أول درجات سلم القصر:

- مولانا النائب يريد أن يراك.

لم أكترث وان كنت أتوقع شيئاً ما.. اجتزنا عدة طوابق حتى وصلنا إلى منظرة النائب الفخمة ذات النوافذ الواسعة والعقود الملوّنة التي تعلوها.. كان متكئاً بكرشه المنفوخ وبعينيه الجاحظتين وشفتيه المتدليتين كأن ورماً خبيثاً أصابها.. وقد مدّ رجليه القصيرتين والتي عكف عليها صاحبي يدلكهما برفق ورتابة بأنامله.. تخيلته محترفاً في صنعته..

كانت (المداعة المنيبر)[1] تحدث صوتاً نتيجة لنفخ النائب لقصبتها الطويلة فيخرج من فمه دخانها في الهواء.. كانت جمنة القهوة القشر أمامه يرشفها بوسط صينية بيضاء.

سألني عن اسمي.. وعن اسم والدي.. ومن أي منطقة أكون.

تكرّم صاحبي بالإجابة بأدب واتزان.. وكفاني مؤونة ذلك الردّ. ظللت واقفاً كما أنا.. وصاحبي ما زال منهمكاً بتدليك قدمي النائب بأنامله..

وكان بعض حديث يدور بينهما لم أستوعبه لانشغالي بالنظر بانبهار إلى التحف والطنافس التي تملأ المنظرة.. منها سيوف مذهّبة.. وكتابات مزخرفة تغطي معظم أرفف المنظرة وجدرانها.

وفجأة سألني النائب مباشرة:

- كم عمرك؟
- لا أدري.
- أولم يؤرخ لك في مصحف أو كتاب؟
- الفقهاء في بلادي يؤرخون لأولادهم فقط.
- وأنتم؟
- نؤرخ لمواسم الزراعة.

لا أدري هل أعجب النائب بردّي هذا أم أنه أمتعض له. حيث تململ من مكانه ونهض.. فنهض صاحبي وأخذ بذراعي ونزلنا معاً درجات القصر..

(١) المداعة المنيبر: النرجيلة الممتازة.

قلت له وقد أشرفنا على الساحة:

- ماذا كان يريد النائب مني؟

- مولانا كان يريد منك أن تباشر عملك.

ونظر إلي والبسمة تعلو شفتيه ثم استطرد قائلاً:

- تباشر عملك عند.... عند الشريفة حفصة!

تمالكت نفسي في عدم ظهور أي دهشة على ملامح وجهي.. وقلت:

- ولماذا عند الشريفة حفصة؟.

- هكذا أرادت الشريفة.. وأمر به مولانا النائب.

- لكنه لم يأمرني بذلك مباشرة!.

- لقد قال لي ذلك.. وهذا يكفي.

- كيف؟

- اعتبره أمراً.. ونفّذْه.

- ولكن...

- يا زميلي.. إنك لا تعرف مكانتي في هذا القصر..

- ربما.. وحتى الآن!

- لا تتأثَّر بمظهر غرفتنا وفراشي!

- سامحك الله!

- اعتبرني الرجل الثاني في هذا المكان.

- الرجل الثاني؟!

- الغلام الأول.. إذا أحببت.

أطرقت قليلا.. هزّني من منكبي وقال:

- لماذا أنت شارد الذهن؟

- أفكر.. لماذا هذا الاختيار؟

- غيرك يتمنّاه.

- أريد تعليلاً مقنعاً.

- مزاج.

- أي مزاج هذا.. وهي لا تعرفني سوى للحظة عابرة!

- ربما استلطفتك.

- كنت أنت أجدر بهذا الاستلطاف مني!

- لقد سئمتني.. تريد وجهاً جديداً.

- فقط؟

- ... وربما لتوزّع أعمالي على الجميع.

- حتى العساكر.. والبورزان؟

جذبني نحوه بشدة وقد علا صوته الغضب قائلاً:

- ماذا تقصد؟

- كانوا يسألون عنك.. عن (الدويدار الحالي)!

ترك منكبي وأطرق لحظة إلى الأرض.. ثم قال باسماً:

- ماذا قالوا؟

- لا شيء.. سوى أنني كنت غير محبّب لديهم.

- لا يهمّونني في شيء، فهم مجرّد (عوانس) كعوانس القصر وملحقاته.

- أتعني ذلك؟.

- ألم تلاحـظ ذلـك.. عـلى أشكالهم وطباعهم وحديثهم وتصرفاتهم؟!

★ ★ ★

جذبني نحو دار الشريفة حفصة... قلت له:

- ليس من الآن.

- لماذا؟.

- لم تستدعني أولا.. وثانياً أريد أن أتحدّث إليك حول عملي هذا.

- دويدار.

- لم أفهم؟.

- دويدار.. وهذا يكفي.

- يعني.. خادم!

- أرقى نوعاً ما.

- لم أفهم!

- ستفهم مستقبلاً!

- قال لي هذا الكلام.. البورزان!.

- دعك منه.. فهو عانس أيضاً.

ساد صمت لفترة وجيزة.. قلت له بعد ذلك:

- لماذا يطلقون عليك.. لقبْ.. الحالي؟!.

ابتسم ثم قال:

- من الحلاوة!.

- لا تمزح.. فأنا جادّ في سؤالي.

- ستعرف ذلك مستقبلاً!.
- قال ذلك البورزان قبلك!.
- اسأله عن البقيه إذن!.

شعرت أنه قد بدأ يغضب.. فلم أكرر.. وبعد فترة قال لي وهو يرسم شبه ابتسامة على شفتيه:

- ألا تريدني أن أوصلك إلى دار الشريفة حفصة؟
- ولماذا هذه العجلة، وهذا الضجر؟
- لكي أخلص من هذه المهمة.
- أهي بالنسبة لك تكليف؟!.
- نعم تكليف.

وأطرقت قليلا ثم سألته بتودّد:

- وهل سأبقى معك في الغرفة نفسها؟.
- لا أدري.. هذا شيء متروك لها.
- أريد أن أعرف.. فهذا شيء مهمّ بالنسبة لي.
- سوف تقرّر هي ذلك.. ففي دارها ما هو أجمل وأهدأ من غرفتي.. وهي صاحبة القرار.
- حتى لو راجعتها أنت.. وترجّيتها في أن نظل معاً؟
- ولماذا هذا الإلحاح؟.
- مجرد رغبة مني.. اعتبره (كرأم) البغل لبغل أو حيوان آخر.. إلا إذا كنت قد ضايقتك في خلوتك!
- سنسأل (البورزان) عن هذا غداً!

شعرت أنه متألم مني فقلت:

- يبدو أن حكاية البورزان قد علقت في ذهنك.

- لا ، أبداً.

- ولماذا التركيز؟.

- مجرد مجابرة عابرة ابتدأتها أنت.

★ ★ ★

وضعت يدي تحت رأسي مستلقياً في غرفة صاحبي.. وقد تكالبت عليّ احساسات ومشاعر لم أكن أتوقع حتى مجرد التفكير بها من قبل..

ولمحت لأول مرة ضوء عود ثقاب يشعل فيغمر الغرفة بضوئه.. إنه صاحبي يشعل سيجارة رديئة.. جلست ثم زحفت نحو النافذة الصغيرة عسى أن أرى أي شيء يومض من فوق جبلي الشامخ البعيد.

كان الظلام دامساً.. لا بصيص من نور سوى أضواء النجوم البعيدة.. قال صاحبي مبدداً وحشة الصمت:

- أتريد نَفَساً؟.

لم أفهم مراده فقال:

- سيجارة تزيل سهادك وتخفّف من أرقك.

كنت أعرف في القلعة أن السيجارة محرّمة وأن من يشربها يُعدّ كافراً وملحداً.. ومع ذلك كنت قد سحبت بعض أنفاس منها مع بعض زملائي الرهائن بسريّةٍ كاملة وفي أماكن لا تخطر على بال المعلم الفقيه أو الحرس.. في الحمامات الحجرية الكريهة مثلا... كنت أشعر بالدوار إثر ذلك وقد أصاب بالإغماء.

لا مانع الليلة.. لا بدّ من دوار وغيبوبة أنا في حاجة لها لكي أنسى.. وتناولت من يد صاحبي بقية لفافة ورشفتها حتى كدت أحرق أناملي.

وسبحت مع الدوار والإغماء.. ولم أذكر في الصباح إلا أن صاحبي لم يعد بجانبي. أخذته امرأتان غير زهراء.. جلس معهما في درجات القصر تقبّلانه وتعتصران منه أشياء أخرى..

وأتذكر أنه عاد وأغلق الباب وراءه بعنف ثم نام بعمق لم أعهده فيه من قبل.. لكنني أيقنت أن تلك اللفافة لم تكن من نوع ما ذقته في القلعة.. هي نوع آخر!

كم هو صعب الاستيقاظ مبكراً في هذه المدينة.. وعلى العكس من ذلك... الطراوة والنشاط في قلعة الرهائن المرتفعة.. بالنسبة لي... في المدينة يقوم الشخص النائم وكأنه مضروب ضرباً مبرحاً... متورّم كأنه طبل أو جذع نخلة خاوية.. مسبل العينين.. يداعبه القيء والغثيان والكآبة منذ الصباح.. ومن النادر أن يرغب في تناول فطوره أو قهوته.. فهو لا يرغب في تناول أي شيء سوى الماء البارد وهو نادر وإنْ وُجد ففي أواني العسكر المبخرة.

ومع ذلك فصاحبي يقوم مبكراً كعادته رغم سعاله الشديد المبحوح طوال الليل.. وشحوب وجهه مع ضعف في بدنه يتدرّج في الفترة الأخيرة ويميل لون جسمه إلى الصفرة المقيتة التي توحي بقرب الأجل الحتمي.

اتجهت كالعادة، وبحذر، إلى مقرّ العساكر المعتاد في البوابة الرئيسية... ... وهجعت في ركن بعيد نوعاً ما عن سماع سماجاتهم وزاملهم الساخر.. وأقبل صاحبي قبل أن يكتشف وجودي هنالك.. وتقبّله العسكر باللطف الزائد عن حدّه كما خيّل إليّ، لكنهم أضافوا إلى لطفهم نشيدهم بذلك الزامل المعاد والمكرر...

أما البورزان فقد غضب عليه صاحبي أشد الغضب.. بان ذلك بشكل واضح وصارخ مما أدى إلى توسّط الآخرين من العسكر.

وابتسمت.. ولم يعر صاحبي ابتسامتي أيّ انتباه.. بل جذبني نحو دار الشريفة حفصة.

قلت له:

- لماذا هذه العجلة؟.

- لكي أنهي مهمتي.

- وبعد ذلك؟.

- كلٌّ في حال سبيله.

- هل ضقت بي ذرعا؟.

- لا.

- أرجو أن تكون صادقاً.

- .. أنا صادق.. أيخامرك شكّ في ذلك؟.

- ولكن لمَ هذا التسرّع الملهوف؟

- لكي أنهي مهمتي المكلّف بها.

- تريد التخلّص مني؟ حسناً! كأنك تسوقني إلى مسلخ..

- ... لا تكن ظالماً لي ولها.. ففي رحابها يستظلّ الخير..

تسلّقت من ورائه درجات الدار.. كالمرة الأولى، ولكن هذه المرة كان شعوري يختلف تماما... أحسست برهبة وإجفال كأنني عصفور نادر يدخلونه إلى قفصه الذهبي ويراد منه البقاء مدى الحياة.

فتح صاحبي الباب كالعادة.. كانت الشريفة مطلّة على الساحة كعادتها أيضا في مثل هذا الوقت. التفتت الينا بنظرة مهيبة ثم نهضت واتجهت نحونا.. ابتسمت لصاحبي دون أن تعيرني أيّ اهتمام. وأخذت بيده وأنا أتبعها بنظري إلى الحجرة الصغيرة.. بينما كنت واقفاً أتطلّع إلى لا شيء. مرت دقائق كأنها الدهر.. امتلكتني أثناءها موجة عارمة من كبرياء صلفة فقدتها منذ أُمرت بالنزول من قلعة الرهائن إلى المدينة.

دخلتْ وعبرت من أمامي.. لم تنظر إلي.. واتجهت إلى زاويتها المفضّلة المطلّة على الساحة ثم اتكأت وسألتني:

- ما اسمك؟

فقلت:

- عرفت ذلك البارحة.

نظرت إليّ بحدة غاضبة ثم قالت:

- كم عمرك؟

- لا أعرف.

- ألم يؤرّخ لك أبوك في كتاب أو مصحف يوم ولدت؟

- لا .

- عجيب!

لم أرد أن أقول لها بأن الفقهاء وبعض الأعيان في منطقتي هم الذين يؤرّخون لمواليهم في الكتب والمصاحف القديمة الرثّة.. وبأن أسرتي كغيرها من الأسر الزراعية لا تهتمّ إلا بتاريخ مواسم الزراعة.

وبدا لي كأن السؤال عن العمر وتاريخ المولد شيء مهمّ في حياة أعيان هذا القصر وملحقاته.. ذكرني بكلام أستاذنا الفقيه في القلعة عن حكاية (الطواشى) والدويدار.. والعلم وسن البلوغ!.

ومرّت فترة وجيزة خيّم عليها الصمت.. قامت بعدها بقوامها الصارخ.. فأسبلت نظري حيث ما زلت واقفاً في مكاني كما كنت.. فقالت بتودُّد:

- تعال معي.

وتحرّك جسمي بعدها وهي تقول:

- سأعرّفك على الدار.

- أعرفها.

- من عرّفك عليها؟.

- صاحبي.

- الدويدار المسلول!؟.

- الدويدار الحالي..

- إنه لا يعرف ما أريدك أن تعرفه.. وتفهمه وتتبعه وتلتزم به حرفياً.

لم أجب وقد صدمتني (جلافتها) بدمغ صاحبي بمرض السل.

قالت وقد نظرت إليّ بتروّ لأول مرة:

- ما أدراه.. هذا صاحبك بما أريده منك؟

ولم أجب.. فأخذت بذراعي لأول مرة وجذبتني نحو درجات الدار.. كأن شحنة كهربائية مسّت يدي.. من الطبقات السفلى للدار حتى السطح والمطبخ الذي يعلوه مع مخزنه الخاص بلوازمه..

وظلت يدي في قبضتها والعرق ينزف بغزارة من وجهي. حتى يدي أصبحت مشلولة في كفّها.. وبقيت يدها المطوّقة بأسوار من الذهب ونقوش الزينة ممسكة بيدي..

طفنا كل شبر في الدار.. كانت فرحة تعلوها البهجة حتى وهي تقابل العجائز في الأسرة وبعضاً من خدمها وحشمها في الدرجات أو الأماكن التي طوّفتني بها..

* * *

مرّت الأيام.. وبرغم عملي في دار الشريفة حفصة فإنني شعرت بالاكتئاب والضجر والملل.

كنت مع صاحبي.. الدويدار الحالي.. كما يحلو للبعض تسميته.. نقضي معا بعضاً من أوقاتٍ ممتعة في الساحة أو في البوابة الرئيسية حسب العادة الصباحية مع العسكر والبورزان.. وزاملهم المعتاد..

ثم يضمّنا مرقدنا المشترك في غرفته، منهمكين نجترُّ همومنا اليومية.. لكي نلتقي مجدداً في دهاليز وسلالم وحجرات وساحة

القصر وملحقاته، وفي المطبخ أيضاً بين أفراد اسرة النائب وحشمه وخدمه... نلتقي في غرفة النائب المنبطح دائماً على جنبه الأيسر منذ الصباح... ونهجع معاً في غرفتنا في النهاية.

حاولت ذات يوم، وقد ضقت ذرعاً بالحياة، أن أقنع صاحبي بالخروج إلى الميدان ثم إلى المدينة.. إلى السوق.. إلى الشارع.. قلت له بتودُّد:

- أريد أن أتجّول في المدينة هذا اليوم.. ولو لساعة واحدة..

- لماذا؟

- يوم واحد.. بل ساعة واحدة.. ألا تسمح أن ترافقني؟

- أينقصك شيء في هذا القصر وملحقاته؟

- أشياء!. لكني أريد فقط أن أشمّ الهواء..

- الهواء موجود!.

- أريد أن نمشي معا.. أن نشمّ هواء آخر.. نرى الناس.. أن أجد أيّ شخص من بلدتي ممن يبيعون البصل والثوم والبطاطة في السوق.. أسألهم عن حالة أسرتي!.

- أبوك الهارب يلهب الدنيا بلسانه الطويل على الإمام في الجرائد.. في عدن.. وحالة بلدتكم سيئة...

أطرقت.. لم أكن أعرف أن لوالدي هذه الأهمية!

- أما أعمامك وأفراد أسرتك الآخرون ففي السجون..

أطرقت مرة أخرى.. كنت أعتقد أنني الرهينة الوحيدة في السجن! ثم قال:

- لا يوجد في دياركم سوى النساء والأطفال الرضّع.. و(السواري) و(العكفة) (بقاء) عليكم.

نظرت اليه ملياً.. كلامه لا يأتي من خيال.. فهو قد يلتقطه من أعزّ المقرّبين إلى النائب أو من النائب نفسه.. لا بد أنه قد سمع الكثير مما لم أسمعه ولم أعرفه ولم أكن أتوقّعه!.

قلت له برفق:

- أريد أن أطمئنّ عليهم.

صمت برهة.. وأطرق إلى الأرض وقد خجل أو ندم من كلامه ثم قال:

- الست مرتاحا هنا؟

- نوعاً ما...

- لماذا تريد أكثر من هذا؟

- أريد أن أشمّ الهواء النقيّ.. أن أشعر بأنني حرّ..

- أنت رهينة مولانا الإمام.

- ولكني لست عبداً..

- أنت دويدار!

نظرت اليه وقد علتني مسحة من الغضب:

- ولكني لست «دويدار حالي»..

* * *

ساد بيننا فتور لأيام قلائل.. كنت أشعر أنه يكلّمني من موقع آمر.. لا يهمّ عندي موقعه هذا.. فأنا، بمعية الشريفة حفصة، أعلى

منه مرتبة كما خيّل إليّ، وأقوى نفوذاً.. هذا إن شئت وجاريت رغبتها.

لا أدري ما الذي دفعنا للتصالح بسرعة.. فقد أخذ بيدي ذات يوم واتجه بي نحو البّوابة الرئيسية خارجين إلى ميدان ترابي تتوسّطه شجرة (طولقة) عملاقه يستظلّ تحتها جموع (المشارعين) والمراجعين وطالبي الحاجات من النائب.. وبجوارها منصة حجرية البناء (بالقضاض) الصلب المصنوع من (النورة).. ملساء. وخلفها تقبع عدة غرف تشرف على ممر واحد تظله شرفة بسقفها وأعمدتها الخشبية القديمة والمتآكلة، يطلق عليها الناس (المحكمة) أي مكان المواجهة الخاص بالنائب وكتبته وبعض الحكام الفقهاء في الشرع والقضاء وموظفي المالية وبقية المستخدمين لأعماله المحدودة.. وبين جموع الرعايا المواطنين أصحاب المظالم.

كل ذلك يطل على سائلة المدينة المنحدرة من الجبل والتي تجرف كل مخلفات هذا العالم الصغير من أوراق صفراء وأقمشة باليّة تتكوّن من بقايا الثياب لبنات الجبل ونسائه..

اتجهت مع صاحبي إلى وسط المدينة.. كان الجوّ مفعماً برائحة الوباء وأدخنة مطابخ المنازل.

الوجوه شاحبة تعلوها مسحة لون أصفر مقيت وباهت.. والبطون منفوخة ليس شبعاً وإنما مرضاً.. والأقدام عارية لزجة بالجروح والأوساخ.

جموع منهكة من المتسوّلين والمرضى والمجانين نصطدم بهم في

كل منعطف وفي كل زقاق وفي كل ساحة وشارع.

ما كان أجملها من مدينة بصباحها عندما نطل عليها من على أسوار قلعتها القاهرة معقل الرهائن والمدافع.. حيث كنا نتدلّى بأرجلنا من على أسوارها ونشاهد المآذن والقباب البيضاء والمنازل المرصوصة داخل السور المنيع والهضاب والسهول والجبال الممدودة على مدى البصر..

لكنها الآن.. ومن وسطها وفي أحشائها عرفتها على حقيقتها.. إنها بؤرة للوباء المميت.. مليئة بالمرضى والمجانين وأصحاب العاهات.. والمعوقين والحكام الظالمين.. إنها مدينة تعيسة وبائسة غاية البؤس.. وكم تمرّ كل يوم جنائز الموتى من أبواب سورها تشيّعها أصوات الأطفال مع معلميهم من الفقهاء وطالبي الخير والمغفرة..

لم أجد أحداً من بلدتي حيث لم يكن يوم السوق الأسبوعي المعتاد.. وعدنا.. ودخلت من بوابة القصر وأنا أتنفّس الصعداء.. وقد آليت على نفسي بأن لا أخرج مرة أخرى.. حتى ولو كان يوم السوق الأسبوعي، إلاّ إلى مكان آخر غير هذه المدينة..

ما كان أجملها من مدينة من عل وما أحقرها اليوم في نظري من مقبرة حيّة.. وليتها كانت صامتة!.

غداً هو أول يوم في شهر رمضان.. شعرت بذلك من خلال الإعداد الهائل والاهتمام المشترك لجميع سكان القصر من سادته إلى

عساكره وخدمه وحشمه.. حتى صاحبي.. فقد ملأ غرفتنا بأشياء عجيبة بيضاء اللون كأنها مصنوعة من الفضة.. قال لي بأنها (الأتاريك) وبدأ في تنظيفها ثم ملأها بمادّة القاز والسبرت.. وغيّر، كما أفهمني، ذبائلها الحريرية الملوّنة التي تشبه (قوس علاّن) بألوانه.. ثم شرع يجرب تجاربه عليها..

كم أدهشني صفاء نورها اللبني الناصع.. وكم ضحك صاحبي مني وتلذّذ في مباغتتي بأشياء عجاب تذهلني!

تذكرت ليالي رمضان في بلدتي القابعة في حضن جبلها الأشم المغروسة بين عشرات القرى ومئات الحقول المدرجة وآلاف المزارعين.. منهم أصحاب وأصدقاء لي منذ خلقت حتى أخذت عنوة إلى قلعة الرهائن.. من المسجد إلى (الديوان).. ديوان عاقل القرية نسمر لنسمع آيات من القرآن الكريم.. نحفظها على ضوء سراج زيتي ذي ذبائل قطنية حارقة.. وإذا ما قرئ أي شيء فهو طبعاً كتاب المولد والمآتم والأفراح المملّ!...

وفي قلعة الرهائن كان رمضان بالنسبة للعساكر ورئيسهم والفقيه المعلّم أيضاً رتيباً... وبالنسبة لي ولزملائي الرهائن.. فبعد الفرجة على (قوارح) مدافع رمضان التي تطلق من جوارنا كنا نتناول طعام الإفطار ثم نهجع ونستكين فترة ونخلد للنوم لنقوم باللعب في الصباح أثناء نوم العساكر ورئيسهم والفقيه المعلم في ساحات القلعة وأزقتها ومشارفها، وكنا نتلذّذ بتناول حبات التين الشوكي المتدلية أشجاره إلى الهاوية والتي نقطف منها الثمار بحذر خوفاً من السقوط إلى أعماق سحيقة رهيبة..

في دار النائب وملحقاته يختلف جوّ رمضان عما عهدته في بلدتي وفي قلعة الرهائن... هنا تغمرنا أنوار بيضاء لبنية اللون وتعمّ كل غرفة بواسطة (الأتاريك) ذات اللون الفضي اللامع..

وديوان النائب مكتظّ دائما بالسمّار.. وأحاديث تقال كل ليلة تلوكها الألسن عن الشعر والأدب والسياسة.. ومنادمات لا تصل إلى درجة السماجة.. إلا في بعض الأحيان..

أما نساء القصر وملحقاته فلهن مريدات للسمر أيضا.. معظمهن من الجيران وبعض الأسر العريقة ذات المركز الاجتماعي المرموق.. وفي بعض الليالي يفاجأن بنسوة من الأسرة المالكة.. من قصور ولي العهد.. اللواتي تطغى روائحهن العطرية على كل مخلفات الدخان المتصاعد من (المدائع) والمواقد..

حتى العساكر ومن ضمنهم (البورزان) المتصابي.. لديهم مكان معتاد بجوار البوّابة الرئيسية.. قد هيّأوه لهذا الشهر الكريم.. ويدور فيه حوار وسجال عن معارك مبالغ فيها ضد الأتراك والوهابيين والبريطانيين..

الشريفة حفصة تصوم طبعا.. هذا ما لمسته.. وتنام بعد سهر طويل.. وتستيقظ في أوقات غير مرتبة.. لكنها أوقات متأخرة جداً.. وهذا ما أزعجني.. فمثلها لا يجوز لها هذا العبث بصحتها.. والذي يؤثر على رونق جمالها وخصوصاً في شهر رمضان الذي يقلب حياة الناس رأساً على عقب..

وبالرغم من ذلك فما زال صوتها كما هو لم يتغيّر.. ما زال يجذبني اليها بشدة كأنه سحر محكم..

شغلتني أوامر الشريفة حفصة طوال شهر رمضان بنقل رسائلها إلى سامر مداوم في ديوان النائب.. لم أعرفه من قبل وإن كنت قد لمحت صورته في إحدى المناسبات الخاصة أو العامة..

كنت أسلمه رسالتها.. وأنتظر.. وكان في بعض الأحيان يكتب بإطالة مما يضطرني للاستجابة بتعمير (بواري) (مدائع) بعض السامرين في ديوان النائب.. وهي ليست مهمتي.. وقد يغمز لي بطرف فأتوجّه نحوه ليسلمني الجواب للشريفة حفصة.. ذات ليلة دسّ في يدي بريال فضي.. كنت طوال عمري لم أتناوله بل ولم أعرف شكله من قبل.. وكأنه قمر هبط عليّ فجأة من السماء..

وكنت أعود بالرسائل الجوابية إلى الشريفة حفصة.. التي كانت تأمرني معظم الأحيان بالبقاء معها حتى تنتهي من قراءتها لتلك الردود.. كانت تمزق بعضها بغضب.. ومن النادر أن تحتفظ ببعض منها..

قلت لصاحبي ذات ليلة من ليالي رمضان ونحن نشعل (الأتاريك) استعداداً لسهرة القصر وملحقاته:

- لقد تعبت من نقل الرسائل والهدايا.

- وستتعب الشريفة حفصة.. أيضاً..

- لماذا؟.

- الرجل.. هو شاعر الإمام وولي العهد الخاص.. وهو وسيم ومرتاح ولديه من هذه الرسائل عشرات بل مئات.. ومن داخل قصر الإمام وولي عهده والسيوف كلهم ما لا يحصى.. وتنهال عليه

المدايا الثمينة مما يجعله يعيش كالإمام وولي عهده وأفضل منهما.. وأفضل من النائب هذا ايضا!.

- وهل تعرف حفصة.. أعني الشريفة حفصة بهذا؟.

- هي تعرف.. لكن الكبرياء والتعالي يجعلانها تحرص على الصلة به..

- وهل يحبها؟.

- لا يحبّ إلا نفسه..

- وهي؟.

- .. تحلم.. ولا تحب..

- لم أفهم!

- تحلم بالشهرة وتحب التحدّي..

لم تبخل علي الشريفة حفصة بشيء.. منحتني الملابس النظيفة.. فكوّنت المظهر اللائق بها وبي.

ومع ذلك كنت أريد أكثر من ذلك.. لكنها كانت تتعالى كومضة برق..

قلت لها يوماً وقد طفح الكيل:

- أرجو أن تعفيني من حمل هذه الرسائل.

- لماذا؟

- لا فائدة ترجى.

- كيف تتجرأ على قول مثل هذا الكلام؟!

- هي الحقيقة التي أشاهدها... فلديه ما يشغله عنك.

- اخرس.. يا..

وهوت بيدها الناعمة الجميلة المخضبة بالحناء والمزينة بالأساور الذهبية على خدي بلطمة تقبلتها بثبات وقد تمالكت أعصابي وقلت:

- أنت تحلمين ولا تحبين.

- اخرس.

وهرعت الدرجات مسرعاً تاركاً صوتها يعلو بالشتائم العصبية المتوترة.

....

قادني أحد العساكر إلى البوابة الرئيسية حيث تقرفصت ومددت رجلي ليوضع حولها قيد حديدي.. طرقه أحد العساكر حتى أحكم دائرته.

ومشيت نحو غرفتنا حيث نصحني صاحبي بوضع بعض أقمشة بالية على ساقيّ لكي لا يحتك القيد بهما ويحدث جروحاً.. وإزعاجاً أيضاً!.

لم أكلّمه تلك الليلة حفظاً لماء الوجه.. كان متألماً كما بدا لي من خلال تقاسيم وجهه.. أكد لي أن قيدي كان عن إصرار من الشريفة حفصة.. نفذه النائب..

السجين المقيد مرتاح أكثر ممن هم طلقاء بلا قيود في هذه المدينة، بل وربما في البلاد كلها.!. فلا مشاغل ولا هموم يعانون منها، فعذرهم واضح بأنهم سجناء مقيّدون لا حول لهم ولا قوة..

كنت أستيقظ مبكراً خلافاً للعادة وأتجه بقيدي إلى (دكة العسكر في البوابة الرئيسية.. أتناول معهم وجبة الإفطار العادية المكوّنة من (الكدم والبرعى[1]) إن وجد أو ما حصل من (سحاوق[2]).. وأتجاذب معهم أطراف الحديث المعتاد..

ومع قلة حديثي مع صاحبي فقد شعرت بأن هنالك حركة غير عادية تجري في القصر وملحقاته وفي تصرفات صاحبي العجلى الفرحة،فسألته عن ذلك فقال بفرح:

- سيصل اليوم ابن النائب من الخارج.

- ولماذا كل هذه الحركة والدربكة اللافتة للنظر!. ألديه حاشية كبيرة ستصل معه؟

- ستصل معه سيارته الصغيرة فقط!. وستحملها الجمال إلى مشارف المدينة!. وسيقوم الآن المهندس الايطالي بتركيبها فور وصولها!. ألا ترى أنه حديث يستحقّ كل هذه الحركة والدربكة اللافتة لنظرك!؟.

- شيء عادي أن يعود ابن النائب من الخارج إلى موطنه!.

- لا أقصد ذلك.. أقصد وصول سيارة معه.. وصغيرة جداً.. ألم تعرف ما هي السيارة؟.

....

فتحت البوابة الرئيسية بأكملها.. وأشرأبت الأعناق من كل نافذة داخل القصر وخارجه.. وكثر الهرج والمرج.. وتجمّعت

(١) الكدم: خبز رديء يصنع خاصة للجند، والبرعى هو حبوب البزاليا المطبوخة.

(٢) السحارق: الطماطم المسحوقة مع البهارات.

جحافل من (الرعية) من شركاء وأجراء النائب في المدينة والأرياف.. وحشد غفير من الناس من رجال ونساء وأطفال في ساحة المدينة المطل عليها القصر وملحقاته..

كان العسكر ينظمونهم حسب المزاج وبطرق عشوائية.. فكم من خبط وضرب ولكم لخلق الله!.

خرجت بقيدي الحديدي إلى الفسقية التي تتوسط ساحة القصر وملحقاته.. أتعشم أن أشاهد صاحبي وهو بجوار النائب وابنه الواصل من الخارج راكباً بجوارهما على تلك السيارة الصغيرة العجيبة..

لملمت قيدي وانحنيت على ركبتيّ محتضناً إياهما مع القيد.. كان مكاني يتيح لي فرصة للمشاهدة أحسن من أي مكان آخر..

لا أدري كيف راود ذهني قَسَم عظيم بأن لا أعود إلى دار الشريفة حفصة مهما طال القيد.. وسمعت من خلفي صوتها فجأة وهي تزأر:

- طليق.. وفي الساحة؟!.

لم ألتفت ولم أجب..

- وتتفرّج على خلق الله كأن شيئاً لم يكن؟. هه!..

لم ألتفت ولم أجب.

وهزّتني من كتفي بقوة وقالت:

- لماذا لا تجيب؟!.

ولم ألتفت ولم أجب.

واستوت إليّ مواجهةً وقد حجبت عني رؤية البوابة الرئيسية المكتظة بخلق كثيرين منتظرين مثلي الفرجة على هذا الحدث القادم.

وبالرغم من أنها في ساحة القصر وملحقاته إلا أنها تلتحف شرشفها الأسود الذي لا يظهر منه سوى عينيها البراقتين المكحولتين بالإثمد وأنفها البارز كحدّ السيف من خلال اللثام.. ومع ذلك التوتّر فقد مدّت يدها المزينة بالذهب والمصبوغة بالخضاب الذي أظهر ذلك البياض المفعم بالحمرة والذي يتجلى على أناملها وظهر كفّيها وذراعيها لتمسك بي مرة أخرى وبقوة لنتواجه..

أصلحت من وضعي بعد هذا العنف.. وحاولت الوقوف لكنها منعتني بحركة آمرة قوية من يدها ومن خلال صوتها الأجش المهاب..

تأملتني ملياً وبرفق وأنا مستسلم.. نسيت خلالها الحشود الغفيرة وهذا الحدث... وغمرتني مشاعر فياضة لم أحس بها من قبل.

جلست بجواري على حافة الفسقية وهي تضع عجزها الفاتن لتصلح جلستها حتى شعرت بأنها تزيحني فعلاً من مكاني لكي أرتمي على الأرض.. فأصلحت من مجلسي مرة أخرى خاشعاً ومتيحاً لها أخذ راحتها.. وتململت قليلاً ثم نظرت إليّ قائلة:

- لماذا تؤذيني.. رغم إحساني وعطفي عليك؟!.

أحسست أنها تخاطبني كطفل يتيم وصغير.. وجاهل.. فقلت:

- لم يحدث مني شيء يسوؤك.

- كنت جلفاً وقاسياً وبلا ذوق معي (كقبيليّ بسبله)

- قد أكون قبيلياً.. ولكني بلا سبلة..

وضربت برجلها المتدلية عرض الفسقية المقضضة بالنورة ثم وضعت يدها على عجزها وقالت:

- لقد آلمتني.

- بماذا لا سمح الله؟!.

- وثقت فيك..

- لم أخن تلك الثقة!.

- بل تجاوزت!.

- .. حاولت النصيحة فقط!.

واستدارت شبه غاضبة قائلة:

- لست وصياً عليّ..

- أعرف ذلك.. فأنا مجرد (دويدار)!.

- بالضبط.. والدويدار يعرف كيف يؤدي عمله.

- كدويدار حالي!.

- أنت (حالي) قبل أن تكون دويداراً!.

طرق مسمعي قولها ذلك وبصوتها الرخو المبحوح الذي يميّزها عن غيرها من نساء القصر وملحقاته.. حتى صوتها هذا كان له دائماً وقع سحري في أذني.. وقع محبّب عشقته وظل يطرق مسمعي ليل نهار، أكنت نائماً أم يقظاً..

وعلا هرج وارتفع صياح عرفت من خلاله أن موكب النائب وابنه بسيارته قد أزف.. وعلا صوت بوق (البورزان) بالرموز التركية التي تعلن مقدم النائب.. وانتصبت الشريفة قائمة ثم نظرت اليّ وأسدلت نقاب شرشفها على وجهها ثم وثبت كمهرة بكر نحو دارها دون أن تأبه بالموكب أو تعيره اهتماما.!.

تعالت الأصوات.. وسمعت أزيز محرك السيارة وصوت بوقها لأول مرة مختلطاً بصوت بوق البورزان.. وقفت وقد دخل الموكب يتقدمه البورزان ببوقه الصائح تليه مجموعة من الحرس النظام والبراني والحشم والخدم.. ودخلت السيارة يقودها ابن النائب العائد من الخارج منفوخاً كضفدعة.. جاحظ العينين تكاد بسمته المصطنعة أن تضيع بين أوداجه المنتفخة!. وجلس بجواره والده النائب وقد لبس أحسن ما لديه من لباس.. ووقف خلفهما صاحي يحيي بفرح ويمازح الناس والسعادة تغمره.. صفقت له وناديته باسمه.. بل وهتفت بحياته.. لا أدري كيف فعلت ذلك!

وأقفل العسكر البوابة بعد أن طردوا بقسوة أطفال المدينة المندفعين لرؤية السيارة القادمة من عالم المجهول..

ونزل النائب بعد أن أوقف ابنه الضفدع أزيز محركها ووثب صاحي كغزال وهو يبتسم عندما رآني أصفق له..

واطمأن ابن النائب على سيارته في اصطبل الخيول التي أخذها الإمام..

وكانت ليلة سمر.. احتفى الكل فيها بابن النائب.. وسمرت

قليلا عند العسكر استمتعت برقصاتهم الشعبية على أنغام المزمار والطبل.. كانوا يشاركون بالاحتفال بوصول ابن النائب ويتوقّعون في الصباح أن يكرمهم النائب بأوامر نافعة على الرعية لتأخرهم عن تسديد الزكاة وملحقاتها.. وبات كل عسكري منهم يحلم بأمر يأخذه على رعية من منطقة يفضلها ويعرف مردود ذلك الأمر!.

....

في الصباح الباكر اقتادني أحد العسكر إلى حَجر فك القيود.. لم يبق غيره من العسكر فقد تفرقوا ضيوفاً غير مرغوب فيهم على الرعية طبقا للأوامر.. حتى البورزان ذهب هذه المرة وكان أمره على شيخ ظالم في واد خصب ليحصل منه على مصروف سنة كاملة..

أمرني العسكري بالجلوس لفك القيد الحديدي.. حاولت أن أسأل ولم أجب. فقد كان مصاباً بسوء الحظ لعدم ذهابه كزملائه.. وأقبل صاحبي مبتسماً كعادته وقال لي:

- لقد أمرت الشريفة حفصة بفك قيدك!.
- لكنني لم أطلب منها؟.
- هي أمرت..
- لن أنفذ هذا الأمر.
- العسكري سيقوم بتنفيذه!.
- سأقاوم.
- سيكلفك ذلك الكثير!.
- لا يهم.

وأقنعت نفسي وصممت على ما اقتنعت به.. وحاول العسكري إخضاعي بالقوة ووضعني على الأرض.. لكنني قاومت.. ونشبت بيني وبينه معركة استخدمت فيها كلّ ما استطعت من وسائل.. بالأظافر وبرمي الحصى على عيونه وبالعضّ بالأسنان.. لكنه كان مستثاراً أكثر مني لعدم خروجه مع زملائه فصبّ غضبه علي وتحملت منه ركلات ولطمات صلفة.. ومن عسكري غاضب لعدم خروجه بأمر على رعوى ولبقائه الوحيد بلا أمر!. وتدخل صاحبي فوراً وكان تدخله لصالحي بعد أن تجمع بعض الخدم والخادمات للمشاركة في فك ذلك الاشتباك الذي لم أعرف له سبباً سوى أنني حرنت بعناد لا مبرر له!.

أخذني صاحبي بقيدي إلى غرفته.. وحاول قدر استطاعته مسح الدماء ولأم بعض الجروح الخفيفة وتهدئة نفسيتي المثارة..

....

ظلّ القوم فرحين بمقدم ابن النائب بسيارته الوحيدة.. ولم أبرح غرفتي... وقام صاحبي بتوفير كل شيء لي.. أحببته من كل قلبي.. وتساءلت لماذا كل هذا التعب والعناء المبذول منه؟.

وبرغم ما حدث فلم تبارح الشريفة حفصة مخيلتي مطلقاً بكل جسمها وصوتها ومفاتنها العديدة.. كنت أطرد صورتها من خيالي بقوة أثناء نومي أو يقظتي.. دون جدوى!. وكنت أحاول أن أنساها بتذكّري لأبي وأمي وإخوتي وأسرتي عسى أن تقوم صورهم بطرد صورتها.. ولكن دون جدوى.. أصبحت جزءاً من الغرفة.. من حياتي اليومية المعاشة.. لا حركة ولا سكينة فيها إلا وهي

موجودة أمامي.. حتى لقاء صاحبي مع نساء القصر وشذوذهن معه لم أعد أكترث ولا أهتم به..

لكنني سمعت هذه الليلة ،وهي ليلة قريبة من تلك الأحداث.. سمعت صوتاً ينادي على صاحبي.. صوتاً ليس من أصوات صديقاته عانسات القصر.. إنه صوت رخو مبحوح أقشعرّ له جسمي فتدثّرت بفراشي وقد أحكمت كتم أنفاسي فيه!..

- يا (عبادي).. يا دويدار (عبادي)...

وقام صاحبي مذعوراً كأنه مثلي لم يتوقع حدوث ذلك.. وقال:

- من؟. نعم أنا اليكم!. يا مرحباً بكم..

- أريد صاحبك.

- إنه نائم.

- أيقظه.

- تفضلي.

- قلت لك أيقظه..

واتجه نحوي بوجل وهو يوقظني:

- قم، الشريفة حفصة تريدك..

- لن أستيقظ..

- إنها تريدك..

ولكزني برأس أصابعه.. حاولت قدر المستطاع أن أوهمها وأوهمه بعدم اهتمامي بها ولكني فشلت فنهضت مسرعاً كأنني بلا شعور.. وجذبتني من ذراعي وأنزلقت معها سلالم القصر... كنت أثب خلفها بالقيد الحديدي دون أن أنبس بأي كلمة.. كان القيد

يحدث ضجيجاً مزعجاً قالت:

- كأنك لم تسجن بقيد من قبل؟!.

لم أجب.

واستمرت قائلة:

- .. وإلاَّ لتعلّمت كيف تحافظ على ساقيك من القيد بالخرق البالية من القماش التي تمنع هذا الصرير المزعج أيضاً!.

لم أجب.. بل تعمّدت مزيداً من إحداث صرير القيد الحديدي المزعج..

وفي الساحة حاولت عندما وقفنا أن أسألها.. أسألها عن سبب حبسي وقيدي.. أسألها عن سبب حبي لها.. أسألها عن سبب تعلّقها بي واهتمامها بي.. ومغامرتها لأخذي بقيدي إلى هذه الساحة؟.

لكني لم أجرؤ.. بل تبعتها بعد ذلك في خطواتها ككلب مطيع لصاحبه.. أو ربما ككلب ضال..

أجلستني بجوارها على الأرض وهي تقول:

- لماذا لم تقبل فكّ قيدك؟.

- لأنه أراحني عن أداء مهمات لا أحب أداءها!.

أوحت الي بأنها لم تفهم مغزى قولي فقالت:

- .. هل أنت مريض؟.

سؤال مفاجئ.. فأنا بخير ولا أدري ماذا تقصد.. فقلت متحذلقا:

- .. ربما!.

- وكسول؟.

- .. لا أعتقد ذلك..

- فخور بأنك كنت رهينة!؟.

- وما زلت رهينة!.

- رهينة من؟.

لم أجب.. مسّنى إحساس من كرامة بعدم الخضوع.. لأكن رهينة.. أو دويداراً... وربما صرت في هذه الفترة خادماً.. وخادماً للشريفة حفصة.. لا يهم هذا عندي... ولكن الأهم من ذلك أن لا أصبح دويداراً حالياً، وهذا ما كان يزعجني.. شعرت أنها كانت تتوقع أن أجيب بأنني رهينتها.. دويدارها الحالي!.

وشعرت أيضاً بأنها تقدر موقفي بعدم محاولتها جرح مشاعري مرة أخرى.. فاتجهت بي إلى البوابة الرئيسية للقصر.. مقر العسكر والبورزان ونادت بصوتها الآمر فتواجد بعضهم بخضوع وخشوع.. كان معظمهم قد عاد من مهامه فأمرتهم بصوتها الملبي دائماً.. ولم أشعر إلا بمجموعة منهم تطرحني أرضاً وتفكّ قيدي الحديدي برفق بواسطة القضيبين الحديديين المرتكزين على حجر متآكل..

وعادت بي إلى الساحة قائلة:

- هل تريد العودة إلى صاحبك أم إلى داري؟..

كنت أعرف أن المقام في دارها له مزايا خاصة.. مريحة ومغرية.. ولكني فضلت العودة إلى غرفة صاحبي برغم تأففي لما يمارسه من شذوذ غير لائق مع معظم نساء القصر أعتبره في نظري من المحرمات..

واتخذت قراري بالعودة إلى غرفة صاحبي مع حفظ ماء الوجه والإيهام بالكبرياء وكرامة النفس تقبلته الشريفة حفصة بروح العارفة الدارسة للنفسية المراهقة!.

بهذه الصورة أطلقتني الشريفة حفصة من قيدي.. وجعلتني أختار بحرية تامّة غرفة صاحبي الدويدار الحالي.. وهي بالتأكيد تعرف أنني سأقوم بعملي لديها بقناعة تامة..

لم تحاول إعادة الكرة معي في إرسال خطاباتها إلى شاعر الإمام وولي عهده.. فقد استعاضت بصاحبي.. وبرغم معرفتي بذلك لم ألمح لها!.

* * *

كان صاحبي يقوم بفرك رجليْ النائب المبطوح أمام النافذة المطلة على ساحة قصره وملحقاته.. كما هي عادة النواب والأمراء والسيوف.. سيوف الإسلام الذين لم أعرف أحداً منهم حتى الآن.. كنت واقفا بجانب صاحبي والنائب يسحب نفساً من المداعة كالعادة.. وفنجان القهوة أمامه قد برد.!.

وفجأة دخل علينا شاعر الإمام الوسيم.. فنهض النائب بكل ثقل جسمه.. وانتفض صاحبي لهذه المباغتة رافعاً يده عن رجلي النائب وانسحبت مع صاحبي إلى مؤخرة المنظرة.

لم يكن من المتوقّع وصول شاعر الإمام ودخوله المفاجئ إلى المنظرة الخاصة بالنائب التي ليس بمقدور أيّ شخص دخولها إلا إذا كان رسولاً خاصاً من الإمام أو ولي عهده السيف وقادم لأمر مهم.. أو شخص مهم من أسرة النائب المقرّبين جداً!.

لم أستوعب بوضوح مع صاحبي كل ما دار من حديث متبادل بين النائب والشاعر.. حيث بدأ الحديث بالمجاملات المملة من تحيات وسؤال عن الأحوال الخاصة والعامة وابتسامات كلها زور وبهتان ونفاق.. كان النائب طبيعياً ولو أنه قد أحس بأن الشاعر مكلف من ولي العهد السيف بشيء هام.. وكل ما سمعته مع صاحبي وكأننا جزءٌ من أثاث المنظرة مجرد حوار يدور حول سيارة ابن النائب وعن موكب دخولها المدينة التي لم تعهده من قبل.. وقد عبر الشاعر عن استياء ولي العهد السيف لذلك الموكب وتلك المظاهر البراقة التي رافقت الموكب.

كان النائب برغم ثخن جسمه.. وبرغم شفتيه المتدليتين إلى أسفل ذكياً بلا شك، وإلا لما أصبح نائباً للإمام وعاملاً على هذه المدينة الهامة وملحقاتها من أرياف ونواح وثغور.

وتصنع النائب الاستغراب لهذا الحديث الذي أثاره الشاعر ثم ابتسم متعجباً.. وقال بعد برهة تفكير أوحى بها إلى الشاعر:

- السيارة.. هي أصلاً هدية لمولانا ولي العهد حفظه الله من ولدي ومني.. ولها قصة طويلة.. عندما طلبت منه شراءها من الخارج لمولانا حفظه الله.. وقد تمكّن من شرائها وإيصالها بنفسه إلى الميناء بجهد يشكر عليه.. وقد حبذ إيصالها بنفسه إلى المدينة ايضا.. وقد استقبلته وكان ما كان.!. على كل حال فهو مصرّ على إيصالها بنفسه إلى مولانا حفظه الله وما تأخر ذلك إلا لوعكة ألمت به بعد عناء السفر.. وسيوصلها في الصباح الباكر ويقودها

بنفسه.. وتعرف سيدي انشغال مولانا حفظه الله هذه الأيام بقضية هؤلاء الذين يدعون (الأحرار) اليمنيين في (عدن).. وهذا ما أخّرني عن إخبار مولانا حفظه الله بهذه الهدية.!..

ولم يتح النائب للشاعر أن يقاطعه فاستطرد قائلاً:

- وحاشى الله أن تكون السيارة لي أو لولدي فنحن سنظل على العهد باقين مدى الحياة، وسنركب البغال والحمير دائماً إلى مقام مولانا حفظه الله..

وما أن توقف النائب برهة حتى حاول الشاعر أن يتكلم ولكن النائب لم يمهله بل واصل قائلا:

- أما تجمهر الناس حول منزلي فهو لمجرد رؤية هذه السيارة العجيبة وليس لرؤيتي أو لرؤية ابني.. وأنتم تعرفون سيدي أنهم من العوام.. فلا سيد فيهم ولا قاض .. ولا نقيب.. ولا حتى مجرد رعوي مزارع.. كلهم من أبناء الشارع والحواري في المدينة...

وبالكاد سنحت فرصة للشاعر فقال:

- أعرف ذلك.. طابت أوقاتكم.. وسأقوم بنقل هذا إلى مولانا حفظه الله.. ثقوا من ذلك...

- ولماذا هذه العجلة.. امكث معنا ولو قليلا!

- أفضّل الذهاب، فمولانا على أحرّ من الجمر.

وتوّجه النائب نحو خزانة في عرض الحائط وأخرج منها بعض أشياء لمعت بعضها في عيوننا ببريق لون الذهب والفضّة.. وقدّمها إلى يد الشاعر الذي حاول أن يظهر امتنانه بعدم قبولها.. لكنه في النهاية حفظها في مكان أمين في ملابسه!.

ونظر الينا عند خروجه وابتسم.. وسلّم لصاحبي رسالة خلسة وغمز له بعينه اليسرى..

....

أخذت مع صاحبي نتجاذب أطراف الحديث حول زيارة الشاعر للنائب، ومع ذلك كان ألمي شديداً لانشغال الشريفة حفصة بهذا الشاعر المدّعي..

الرسالة ما زالت مع صاحبي.. وكم هممت أن أعرف ما فيها.. فكرت أن أحتال على صاحبي لأول مرة في حياتي وأفتح الرسالة في غفلة منه..

وخرج ليقضي بعض أعماله المعتادة والمتأخرة.. وكان رداؤه معلقاً في مكانه المعتاد والرسالة بداخله بالتأكيد.. وليس بيني وبين أن أعرف ما بداخلها إلا أن آخذها وأقرأها بسرعة وأعيدها إلى مكانها كما كانت.. أريد أن أعرف ماذا يقول لها من دجل ونفاق وابتزاز لعواطفها.. هذا ما تخيّلته وأنا أحاول أن أقدم على أخذ الرسالة.. لكنني تراجعت بكبرياء انتابتني فجأة وأقنعت نفسي بعدم الاهتمام بالرسالة بل وبالشريفة حفصة..

وعاد صاحبي وأنا في حالة معاناة وتأمل ومراجعة مع النفس وبدأ يعلو سعاله المعتاد المقرف الذي لا يكفّ عنه إلا بعد غيبوبة.. كنت قلقاً منذ فترة على صحته ومنذ بدأت هذه الظاهرة تلم به.. ومع ذلك ما زال يشعل سيجارة ملفوفة إثر أخرى ويسعل مجدّداً حتى يفقد وعيه...

....

استيقظت مبكراً لأول مرة رغم سهادي.. وتركت صاحبي يعوض نومه.. واتجهت إلى دار الشريفة حفصة..

كان يوماً كئيباً على نفسي بالرغم من شعور روحي يدفعني لرؤيتها.. لم يعد يهمني أي شيء.. ما دمت أعمل في معيتها.. وهذا شيء مفروض علي.. هكذا عللت لنفسي سرعة اندفاعي إلى منزلها.. ومع علمي بأن الوقت كان مبكراً وبأنها ما تزال نائمة فقد جلست أمام باب منظرتها أنتظر..

وفجأة فتحت الباب وكادت أن ترتطم بي.. ثم قالت:

- يا صباح الخير.. بالرهينة الحالي!

وانتفضت واقفاً ولم أستطع الإجابة.

كانت مرسلة الشعر.. ممتلئة الوجه.. مدعوجة العينين.. كم يعطيها النوم راحة لجسمها المتململ بالحيوية.. وصوتها الرخو المشوب بشيء من الفحيح.. وقالت:

- أين صاحبك؟!

- تركته نائماً..

عبرت عن استيائها لعدم حضوره بحركة من رأسها.. بينما قلت مستفسرا:

- هل تريدين منه شيئاً؟.

وبعد تلكؤ منها كأنها لم تكن تريد أن أعرف قالت بضجر:

- اذهب وخذ منه رسالة.. إئت بها الي سريعاً..

وما أن نزلت بعض درجات القصر حتى كان صاحبي قد وصل وهو يصيح لائماً:

- ألم أقل لك أن توقظني مبكراً؟!.

- لم تقل لي فأنت دائما أول من يستيقظ في هذا القصر.

- لا أدري ما الذي ألمّ بي هذه الليلة..

- سعالك الشديد والحادّ.. الذي لا تريد أن تعالجه.

- ألم تسأل عني الشريفة "حفصة؟.

- سألت عنك.. وعن الرسالة!.

لم يجب.. وعدت معه وقد خفت حدّة غضب الشريفة حفصة والتي سمعت بعض حوارنا كما خيل إلى.. وقدّم لها الرسالة.. أخذتها بلهفة تألمت لها.. ودخلت إلى منظرتها وقد تركت الباب مفتوحاً حيث أتاحت لي أن أتابع حركاتها وهي تقرأ الرسالة.. وتأملت بدقة... وفجأة مزّقت الرسالة ورمتها من النافذة!.

ابتسمت فرحا لهذه النتيجة التي لم أكن أتوقعها.. واستدارت الشريفة حفصة نحو باب المنظرة.. نحونا.. ولتصرفنا إلى أعمال لم نكن نتوقعها أو من المطلوب منا تنفيذها!.

ما زلت أبتسم فرحا.. فنظرت إليّ باستفسار.. لكنني لم أجب.. بل توجهت مع صاحبي نهبط درجات القصر لتنفيذ أوامرها.

|...........

انتهت أزمة السيارة التي وصل بها ابن النائب.. فقد سلمت إلى قصر وليّ العهد.. أخذها ابن النائب بنفسه وكان إلى جواره الشاعر الوسيم..

وطاب المقام لابن النائب العائد من دراسته في مصر.. كان لا

يخلو يوما فهو إما أن يكون مدعواً لغداء أو مقيل أو عشاء وسمر في بيوت الأسر المعروفة في المدينة أو الأقرباء وبعض الموظفين المهمّين..

وذات يوم أخبرتنا الشريفة حفصة بأنها قد دعت ابن أخيها الضفدع لتناول العشاء مع أصدقائه في دارها.. وقد سألت صاحبي مستفسراً لماذا لا تدعوه لتناول الغداء والمقيل مع أصدقائه.. فضحك صاحبي ولم يجبني!.

وكان يوماً شاقاً علينا.. كم قمت فيه مع صاحبي بمهام عديدة لا حصر لها حتى أننا شاركنا الخادمات بتنظيف الأواني النحاسية من زهريات وشمعدانات وأباريق و(معاشر)[1] ومتافل.. ورتّبنا معاً منظرة الطعام وما يلزمها من كل شيء.. كانت الشريفة حفصة مزهوّة بدارها ومناظره المفروشة بأفخر أنواع السجاد والمطرزة بأحسن الطنافس النحاسية والفضية أيضاً.. وبعد أذان العشاء كلفتني وحدي بنقل عدة أطباق من اللوز والجوز مفرّقة على طول المنظرة مع صحون وكؤوس من زجاج فارغة وعدة ثلاجات صغيرة لحفظ الماء بارداً.

أخذت الشريفة حفصة بيدي إلى مكان صغير عرفت أنه (الخلوة) لم أدخله من قبل وأخذت من خزينة في الجدار بعض قوارير مملوءة بسوائل ملوّنة.. بعضها أبيض اللون وله رائحة

(١) معاشر: جمع معشرة وهي فاسقية من النحاس كبيرة تتوسط مكان المقيل ويوضع فيها التحف النحاسية (والمدائع) ولوازم المقيل....

عطرية.. ثم أمرتني بأن أضعها في المنظرة موزعة بجوار الكؤوس الفارغة وصحون اللوز والجوز..

قمت بالمهمة على أحسن وجه ونفّذتها بدقة متناهية في الترتيب والذوق لا أدري كيف أجدتها.. وزدت فتفانيت أكثر في وضع كل شيء في مكانه اللائق والطبيعي.. كأنني قد مارست هذا العمل من قبل..

نظرت الي الشريفة حفصة من باب المنظرة وأنا أرتب كل ذلك فنادتني بصوت حنون هرعت لسماعه نحوها..

تسمّرت أمام باب المنظرة حيث لم أستطع الخروج لأنها كانت مسندة ذراعيها على الباب. وجلت، وشعرت بأني أكاد أصطدم بوجهها الباهي العريض كوجه القمر.. واعتراني خوفٌ دق له قلبي ونشف له ريقي.. وأمرتني بصوتها المرح المشوب ببحة محببة إلى قلبي وكل حواسي بالاقتراب منها.. فاقتربت قليلا.. ثم أمرتني مرة أخرى بالاقتراب منها أكثر.. فاقتربت..

كادت أنفاسها تلسع وجهي.. فأمرتني أيضا بالاقتراب أكثر إلى درجة لم يحدث لي من قبل ولا مع والدتي.. فاقتربت..

وأمسكت بيدها برأسي.. و.. وقبلتني في شفتي قبلةً أعتصرت فيها رحيق عسل ملكة نحل بكر...

دار رأسي.. وأحسست بأن الكون كله من حولي يدور.. وقالت وهي تبرر عملها هذا:

- لم أكن أتوقع أن تكون بهذه الدقة من النظام وحسن الذوق والمعرفة.

شي ما حدث كالبرق.. كنت مرتبكاً ومتلعثماً فقلت:

- حسن ظنك.

لم تجب لكنها هرعت مسرعة بجسمها الريان نحو المطبخ. ونبهني صاحبي وقد قدم قائلا:

- ماذا بك كالمجنون؟!

- لا شيء

- هيا إلى عملك.. فالضيوف قادمون.

كان باستطاعتي أن أخدم ألف شخص.. أن أعد ألف وليمة.. أن أقلب الكون رأساً على عقب وبنظام بديع.

وتوافد المدعوون.. كان أولهم ابن النائب (الضفدع) بضحكاته المقرقرة كصوت (المداعة) أو صوت قلّة يسكب منها الماء.. وقد حضر معه جماعة من أصدقائه وأقربائه المدعوين ومن ضمنهم الشاعر الذي دخل وعلى فمه ابتساماته وتحياته المزوّرة والملحّة وضحكاته المنافقة الدجالة.. مع كل تصرفاته التي كلها بهتان وزور..

وأصبت بحالة غمّ وضجر لحظة مقدمه.. لكن كل ذلك زال بعد فترة.. أو هكذا أقنعت نفسي به بعد تذكر ما حدث لي منها قبل قدومهم!.

وجلس الضيوف وقد خلع معظمهم ثيابه التقليدية والعمائم البيضاء.. وقفت مع صاحبي في حجرة مدخل المنظرة عند أحذيتهم المنقلب بعضها والتي قام صاحبي بإعادة وضعها إلى حالتها الطبيعية وليس ذلك منه حرصاً على سلامة الأحذية وإنما لتشاؤم

سائد من وضع الأحذية مقلوبة بأنه يوم نحس أو أنه يسيء إلى السماء.. كنت أعرف ذلك في قريتي في أي مكان مقيل.. أو أي مكان آخر عادي ولو باب المسجد..

ظلّ نظري مصوّباً نحو ذلك الشاعر الوسيم المدّعي.. سمعته من قبل يتلعلع ويجلجل بقصيدة مديح في ديوان النائب.. حتى في شهر رمضان سمعته أيضاً في أمسيات النائب يلقي بقصائده المشيدة بالإمام وولي عهده السيف.. والنائب أيضاً..

كان له شكل مهيب.. ذو سمرة مليحة.. وقوام ممتلئ برشاقة.. وصوت جهوري.. وضحكات مجلجلة عذبة مغرية.. يطلقها افتعالا ليسحر بها عقول النساء.. والرجال أيضاً..

هزتني الشريفة حفصة من منكبي فجأة وهي تقول:

- لماذا أنت شارد؟!

فوجئت.. ولم أستطع النظر اليها.. وأدركت أثناء ذلك بأن صاحبي ليس بجواري لأستأنس به وأستمد منه شجاعتي.. فقد ذهب كما يبدو إلى مهمة دون أشعر به.. وقلت متلعثماً:

- حاضر.

هذا كل ما قدرت على نطقه مجيباً على تساؤلها وقد اعتبرته رداً وافياً لكنها قالت لي آمرة:

- خذ.. هذه.. الورقة.. وأعطها للشاعر الجالس هنالك..

أخفيت مشاعري المصدومة فجأة بأمرها.. وأخذت الورقة منها وعلى مضض..

انتابني إحساس أكيد بأن قبلتها التي عصرتني بها عصراً ما

هي إلا مجرد رشوة للقيام بهذه المهمة التي كنت قد امتنعت عن الاستمرار في أدائها من قبل وأدى ذلك الامتناع إلى حبسي وقيدي..

إذن فقد أخلّت الشريفة حفصة بالشرط الهامّ الذي اتفقنا عليه بعد ذلك وداست على مشاعري.. واستدرجتني بخدعة كان يمكن أن تمرّ على أتفه عاشق على مرّ التاريخ...

لا أدري كيف تذكرت مقيل والدي وما كان يحكيه عن عشق عمر بن أبي ربيعة للشريفة سكينة بنت الحسين!.

ليكن ما أقدمت عليه الشريفة حفصة من عمل جرحني.. فقد صممت في قرارة نفسي أن أريها بأنني لست مهتماً بها ولا بمواقفها هذه المشينة.. وبأنني من قوم لم تمرغ أنوفهم بالتراب!.

تملكني شعور بالأنفة والكبرياء.. ولكنها أنفة مكسورة وكبرياء مجروحة مذلة.. ولكن لا بد من إظهار ذلك.. قلت:

- مرحباً سيدتي.. وسآخذ منه الجواب..

- أحسنت.. يا رهينتي الحالي.

وحاولت الإمساك برأسي بغية تقبيلي.. لكنني نفرت منها سريعاً إلى داخل المنظرة ولم أتح لها فرصة لعمل ذلك.

تمالكت نفسي وقد دخلت عليهم فجأة بحركة لافتة للنظر حيث نظروا إليّ باستغراب... وقفت فترة مناسبة حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من حوار وضحك.. ودنوت برفق من الشاعر.. وجلست بجواره.. نعم.. جلست بجواره والجميع مشغولون بالحديث عن حياة الناس في الخارج.. في مصر بالذات.. يروي ذكرياتها ابن

النائب (الضفدع) مع نوادر عديدة كانوا يضحكون لذكرها..

وتنبّه الشاعر لوجودي بجانبه فنظر إليّ بعينيه الجاحظتين ثم هوى بيده على فخذي.. وفركه بطريقة لم تحدث لي من قبل وقال بصوته المعروف بالزور والبهتان:

- أهلا وسهلا.. يا مرحبا بك.. خطوة عزيزة!.

أبعدت يده عن فخذي بشدة فاتجه بها إلى كأس أمامه وقدمها لي بتواضع قائلا:

- اشرب.. اهلا وسهلا بك يا مرحبا.. خطوة عزيزة!.

عطست اثر اشتمامي لرائحة عفنة مصدرها الكأس التي قدمها لي الشاعر.. وطرحت الكأس بجانبي.. وهززت كتفه مرة أخرى محاولا التخلص من المهمة المنوطة بي كرها.. لكنه رغم ذلك وضع يده مرة أخرى على فخذي قبل أن يلتفت إلى قائلا:

- أهلا بك.. يا مرحبا!.

قذفت بيده بعيداً ثم ناولته الرسالة.. أخذها.. ثم ضحك بعد أن قرأ منها بضعة أسطر.. هي بدايتها وخاتمتها فقط.. وهوى بيده مرة أخرى على فخذي بحركة عجيبة لم أعهدها في حياتي من قبل..

فكرت هذه المرة بأن أقنع نفسي بترك يده على فخذي.. أريد أن أعرف مراده ماذا يهدف في النهاية.. وهي تجربة لا بد أن أعرف غرضها.. فأخذت أنامله في فرك فخذي ما شاء لها المراد في حدود لم تعد معقولة من الأدب ولو أنه لم يعد هنالك أدب ما ولكني شعرت بأنه يسعى بأنامله وقد اطمأن لرضوخي إلى منطقة

حساسة.. إلى شيء لم أجده للشريفة حفصة نفسها ولا لمخلوق آخر حتى الآن.!.

كان مصمماً على نقل يده من فخذي إلى مكان آخر.. يريد أن يفرك ويتلذّذ برغبة جنونية.. استطعت أن أوقفه عند حده وشعر زملاؤه في المنظرة بذلك فابتسموا بخبث!.

انتهى الموقف وقد حوّله اللعين إلى حديث وحوار لفت به الجميع.. كان حديثه عن توقع مؤامرة ضد الإمام ربما تقوم في (صنعاء).. ويذكيها ما أطلق عليهم بالأحرار في عدن..

كان ذلك الحديث ما أراده.. وقد تحقّق له بحيث أصبح حديث الجميع.. فإذا خبا أذكاه الشاعر بطريقته المحتالة..

وتفنّن ابن النائب الضفدع في التأويل والتخمين والحسابات، وكنت ألاحظ اهتماماً بما يقوله ابن النائب من قبل الشاعر..

وصمت الجميع عند حدّ من الكلام كان كل واحد منهم يعرف أنه منطقة فاصلة بين الرعب والأمان..

كنت ألاحظ باب المنظرة.. كانت الشريفة حفصة تختلس من وراء صاحبي.. ترمقني بنظرها.. تريد التأكد من تقديمي الرسالة للشاعر..

وأظهرت عدم الاكتراث بها وبرسالتها وبالشاعر.. وتناولت كأسها مما قدمه لي الشاعر بعد إلحاح منه ومن ابن النائب الضفدع وتجرعتها باحساس من المرارة والتقزز كبتُّه بصعوبة... ومع ذلك

فقد كانت كأساً جعلتني أتعالى أكثر وأزهو بنفسي وألعن الكون كله ومن فيه إلى هذه اللحظة..

وشربت.. شربت الكأس الثالثة المقدمة لي بإلحاح من الشاعر ومن ذلك الضفدع الآدمي..

لم أعد أتذكّر من مجلسنا سوى بعض لمحات.. كقيام ابن النائب بالرقص مقلّداً كما قال (لسامية جمال) و (تحية كاريوكا)..

كان يهزّ وسطه وقد أخذ (لحفة) أحد الأصدقاء وربطها بخصره المكتنز.. ثم شعرت بأنه يغني كما قال (لفريد الأطرش)..

وأتذكر بأن الهرج والصياح والحديث الصاخب قد زاد... أذكر أيضا أن صاحبي كان يقدم أطباقاً من اللحم المشوي (المحنوذ) شهيّ الطعم، وكنت أتناول القطعة تلو الأخرى بنهم وشهية مفرطة.. وكان صاحبي على ما أذكر يحاول أخذي من ذراعي ولم أطاوعه.. اذكر نظرات الشريفة حفصة الغاضبة وهي تتابع المشهد من باب المنظرة..

وقدم لي الشاعر كأسا أخرى على ما أذكر ولا أدري كيف أمسكت بها.. وهل شربتها أم أنها انساحت على ثيابي.. كل ما أذكره أن يده قد كفّت عن عادتها السيّئة.. وخيّل إليّ بأن النائب نفسه قد وصل فجأة وبيده زجاجة طويلة العنق بيضاء اللون والمحتوى.. وكنت قد وقفت بهبالة احتراماً لمقدمه كما تخيّلت.. وقد جذبني الشاعر من يدي لأرتمي بجواره كما كنت، وقدّم لي كأسا أخرى أذكر اني لم أستطع الإمساك بها، فتركتها بيده حتى ضجر

منها فشربها.. وجلس النائب والعرق يتصبّب من صلعته إلى أوداجه المنتفخة ليبلّل ذقنه الخفيفة.. وصبّ له كأساً من زجاجته المفّضلة كما يبدو وعادلها بماء تحوّلت الكأس بعدها إلى لون لبن بقرة دسم!..

أتذكر أنني لم أشبع في حياتي كتلك الليلة.. ويبدو أنني نهضت لقضاء (حاجة) فشعرت بأنني أترنّح.. وبأن الوجوه التي أمامي أصبحت مزدوجه.. شعرت بأنني قد وصلت إلى حالة سيئة.. كنت أقذف بجسمي أو أن جسمي هو الذي يقذف بي في درجات السلالم دون ترو.. ثم أقف أحاول جميع شتاتي متلفّتاً حولي.. وأذكر بأن الشاعر، ولا أدري ما هو الدافع، هبّ لمساعدتي على نزول الدرجات الحجرية.. لكنني أتذكر أنني هويت بيدي اليمنى على خدّه بصفعة قوية سمعت صداها بأذني فصرّ بأسنانه وعاد إلى المنظرة... بينما اتجهت إلى ساحة القصر نحو الفسقية وأنا أحاول التصفير بلحن شعبيّ دون جدوى.. فارتميت على حافة الفسقية.. ولم أشعر إلا بصاحبي ينزعني نزعاً ويضطر إلى سحبي إلى داخل الغرفة..

وكانت ليلة.. ليلة لم تمرّ في حياتي مطلقاً.. وكم ساعدني صاحبي لإفراغ ما بجوفي.

....

تذكرت كل ذلك في صباح اليوم التالي.. كان رأسي ثقيلا ونفسي تدعوني للتقيّؤ من جديد.. كان الغثيان والصداع قد سيطرا على حالتي.. وانتابتني هواجس مؤلمة.. وكآبة مقيتة علتني

واحتلّت وجداني لفترة لاحقة.. كم شعرت بالخجل.. وكيف سأخرج من الغرفة وأواجه كل من عرفته وعرفني في تلك الليلة.. حتىّ صاحبي الذي كان قد غادر فراشه مبكراً حسب عادته قبل قيامي.. كيف سأقابله وأعتذر له.. وتداعت علي هموم عديدة وغمرني الحنين إلى أسرتي بشكل مكثف.. لكنني بعد ترو لممت كل ذلك لمواجهة الواقع الذي قذف بي فيه كأنني غريق أصارع الأمواج متشبّثاً بقشّة!.

مرّ ذلك اليوم كأنه دهر وأنا في حالة قلق وغمّ ونكد. أصارع قلبي وعقلي ونفسيتي المرهقة التي باتت تدفعني حثيثاً لممارسة كل ما يمارسه صاحبي وزميلي وصديقي من أشياء لم أقبل الإقدام عليها ولا حتى مجرد التفكير فيها منذ أن وطئت قدماي هذا القصر وملحقاته ومن فيه.. لكنني بألم بالغ ومذلّ حاولت جهدي أن أخرج من هذه الدوامة بأيّ حلّ.. ولكن دون جدوى.. فقد حصل ما حصل وكأنه بذرة تحّول في مساري..

....

وكان صباح يوم.. انفرجت أزمتي فيه بأزمة أخرى لحادث وقع في محيط القصر واعتبر فضيحة فاحت رائحتها لتغطي على ما كنت أعتقد بأنه فضيحة ارتكبتها أنا في تلك الليلة المشئومة من ليالي الشريفة حفصة!. وكما يقال مصائب قوم عند قوم فوائد.. فقد تم نقل (الطبشي)[١] العجوز إلى الطبيب الايطالي الوحيد في المدينة.. كان (الطبشي) كثر الله خيره وشفاه قد هُشّم رأسه

(١) الطبشي: جندي المدفعية.

الأصلع وسالت الدماء منه وفقد وعيه إثر ركلة عنيفة من حافر بغلة النائب الصغيرة القوية المسماة (زعفرانة)!.

ولاكت الألسن في القصر بل وفي المدينة سيرة ذلك الحادث.. وأصبح موقف (الطبشي) العجوز محرجاً حتى بعد تماثله للشفاء وعودته إلى زملائه العساكر!.

ومسّ ذلك الحدث جميع رفاق العجوز من زملائه العسكر بل ومسّ سكان القصر بمن فيه.. وخصوصاً أن الحادث قد وصل إلى ولي العهد السيف...

وأمر النائب سايسه الخاص بخياط فرج البغلة والبهائم الأخرى!.

ضحك صاحبي وهو يقول معلقاً:

- كان على النائب أن يأمر بخياطة فروج نساء القصر!.

لم يعجبني مباغتة ذلك التعبير.. ولو أنه أضحكني.. ومع ذلك فقد سررت بأن هنالك موضوعاً قد طغى على حدث تلك الليلة الخاص بي!..

....

بعد يوم عمل شاقّ اتجهت مع صاحبي وقد دفعته إلى جولة في اصطبل البغال والحمير.. ولجنا الباب.. كان السائس العجوز يقدم للبغال العلف والقضب.. ويمسح (ببرشانة)[1] حديدية مدبّبة الأسنان ظهور البغال لإزالة الشعر الميت وقتل الحشرات المؤذية المختبئة..

---

(١) برشانة: مشط من الحديد أو النحاس خاص بالخيل والبغال.

كانت (الزعفرانة) تهشّ بذيلها الذهبي الذباب من على مؤخرتها المكتنز الأملس الجميل.. وقد تكاثر الذباب حوله إثر تلك الخياطة القاسية التي أمر بها النائب والتي تركت بعض تقيُّحات وجروح...

تأملتها.. أعني (الزعفرانة).. نافرة ومغرية فعلاً رغم ذلك.. كأنها الشريفة حفصة!..

قلت لصاحبي:

- لا ألومه إذا أقدم على ما أقدم عليه!.

- أتعني (الطبشي) العجوز؟

- نعم.

- كان لديه في القصر عوانس كثيرات!.

- إنه عجوز.. ولن تقبله أيّ واحدة منهن.

- كان سيجد.

- لا أعتقد.. وخصوصاً بوجودك ووجود المتصابي (البورزان).. وبقيةَ العساكر الشبان!.

- ونسيت نفسك.. ألست منا؟.

- أنا هائم بواحدة فقط.. ولن أصل إليها مطلقاً.

- الشريفة (حفصة)؟!..

- الشريفة (الزعفرانة).

وضحك ملء شدقيه.. وقد أطربه ذلك التشبيه!

....

سارت الأمور بيني وبين الشريفة حفصة شبيهة نوعاً ما بالخصام الصامت..

لم تكن تبدي أيّ اهتمام بي ولا أنا أيضاً رغم غليان قلبي بخفقاته الساذجة الضعيفة التي لم أستطع السيطرة عليها أو اخفاءها وتضميدها..

كانت تقول لي: افعل هذا.. هات هذا.. خذ هذا.. اذهب إلى ذلك المكان... انصرف.. عُد..

وكنت أجيب إذا لزم الأمر.. فأنطق: حاضر!.

وذات يوم من أيامنا العابسة الغاضبة.. لا أدري كيف فاجأتني متسائلة:

- لماذا صفعت الشاعر؟.

أثارت بتساؤلها الخبيث أعماق مشاعري فقلت:

- ما أسهل الصفع في هذا القصر!.

وعبست مكشرة.. وتخيّلتها فعلاً تحمل ذيل البغلة (الزعفرانة) الذهبي اللون تهشّ به «بنرفزة» واضحة وتتهيأ لركلي بقدميها.. فانصرفت!.

....

مارست مع صاحبي جميع هواياته ورذائله القذرة.. واندمجت في عالمه الغريب حتى كاد يغار مني!.. فقد تعلّقت بي النسوة المتعدّدات المواهب والمتنافرات أشكالاً وألواناً وأعماراً وقد سئمن من صاحبي لسعاله الشديد ونحوله الشاحب.. وخوفهن من ذلك المرض المرعب..

كدت أشفق عليه.. بل أشفقت عليه فعلاً وهو يتلوّى في مكانه كحيّة جريحة.. وقد تحوّل سعاله إلى فحيح مكبوت لكي لا

يزعجني.. كنت أوهم نفسي وباقتناع تام بأنني أدرأ عنه أعباء لم يعد قادراً على تنفيذها ومواكبة السير فيها كما كان في أيامه السابقة. ومع ذلك أحسست باحتقار لنفسي ولمسلكي المشين!.

وكان عليه لقربه من باب الغرفة عبء فتحه لكل طارق.. وكم كان يتألم بأن يجد الطارق يريدني أنا ولا يريده.. حتى النائب لم يعد يريده لفرك رجليه وقدميه.. كان النائب يفضلني للقيام بتلك المهمة!.

تألمت لهذا الوضع المقلوب الذي تحوّل نحوي.. وزادني ألماً ذات يوم حين أخبرني به ونحن عند البوابة الرئيسية للقصر مع العساكر والبورزان وذلك الطبشي العجوز نتناول طعام الإفطار كالعادة حيث قال لي:

- عليك اليوم مرافقة (الشرائف) إلى قصر ولي العهد.

كانت تلك مهمته دائماً منذ وصلت إلى قصر النائب وحتى الآن.. ولا أدري ما الذي عكس الأمور.. فقلت له مواسياً:

- أهذا اقتراح الشريفة حفصة.. أم هو أمر؟

- .. ربما اقتراح الشرائف كلهن.. وهو أمر على كل حال صادر من النائب كما بلغت به...

أخرجت اللقمة من فمي قبل أن أمضغها وقذفت بها.. وقمت متألماً وقلت محاولا أن أوحي له بأن الأمر عادي ولا يهمني وإنما يزيدني تعاسة:

- أنت أخبر مني بهذه الرحلات.. وخصوصاً إلى قصر ولي العهد..

أجابني وقد فرش ابتسامة باهتة على شفتيه:

- لكل عصر رجاله!..

- هذا تعذيب متعمّد لي منك!.

- لا..

- بل وجرح لمشاعري!.

- لا أقصد..

- وقتل صامت لي!.

- لا تفكّر في هذا..

- لقد أغويتني.. هذا صحيح!. ولكنك لن تغويني لارتكاب خيانة وبأنانية مفرطة..

- لم أغوك مطلقاً.. فأنت مالك نفسك..

- بل أغويتني..

- بماذا؟!.

- .. بالكثير من الأمور.. أتريد أن أذكرك ببعضها؟

- لا أتذكر شيئاً.. ومع ذلك فلا تدع الأمور في ذهنك تصل بك إلى سوء الظنّ هذا..

- أنت سيء الظن بي.

- معاذ الله!

- تجرحني يومياً.

- ما شاء الله!.

- أعوذ بالله..

- هذا يكفي.

- لا ..
- أصبح الجميع ينظرون إلينا ونحن نتجادل!.
- لا يهمّ.
- أرجوك لا ترفع صوتك.
- بل سأفعل ذلك.
- لماذا كل هذا الازعاج؟!.
- لكي تعرف أنني أحبك كأخي الذي فقدته منذ زمن طويل..
- لا يهم.. أنا أخوك.. اعتبرني بمقامة..
- منذ وصلت هذا القصر وأنا أعتبرك أخى فعلا..
- إذن لا داعي للتشنّج!.
- هل أنا الذي أتشنّج؟.
- نعم.. وهل هو أنا؟.
- إذن سأتشنّج أكثر..
- مهلاً!. وليكن!. ولكن لا ترفع صوتك هكذا...
- سأرفعه حتى يسمعني النائب...
- أكيد قد سمعك!.
- ويسمعني من إليه..
- لقد التقطوا الصدى!.
- ويسمعني العالم كله..
- .. وتسمعك حفصة.. الشريفة حفصة!.
- .. حفصة أو الزعفرانة.. لا يهم..

- .. لا داعي لكل هذا.
- لكي يعرفوا يا صاحبي بأنني لم أخنك مطلقاً..
- انتهى الموضوع..
- لم ينته..
- بل انتهى.. وقم بنا إلى الغرفة أخبرك بما هو واجب عليك..
- أيّ واجب؟!.
- مرافقة (الشرائف) إلى قصر ولي العهد!.

....

كانت أصغر زوجات ولي العهد تريد التعرّف على نساء بيوت المدينة المشهورة وبالتالي فنساء النائب هن أوّل المدعوات لهذا اللقاء..

وصلت سيارة البريد الوحيدة التي يملكها الإمام لنقل البريد من العاصمة إلى جميع المدن الرئيسية.. وصلت السيارة إلى فناء القصر لنقل نساء النائب ومن ضمنهن الشريفة حفصة بالدرجة الأولى لأن زوجة الأمير سيف الاسلام ولي العهد تريد رؤيتها بالذات لما شاع عنها من أخبار وأعلام ترتقي إلى مقام الأسطورة المدهشة.!.

سُلِّمت لي عدة حزم من (القات) المغلّف بأغصان (العثرب)(١) الخضراء.. كان القات قد أُحضر من مزارع النائب العديدة المجاورة للمدينة والتي يقوم بفلاحتها شركاؤه من الرعية البسطاء على ثلث المحصول..

---

(١) العثرب: نباتات مختلفة.

كانت الحزم ثقيلة على كتفي.. وقد ألزمت بوضعها في مكان مناسب في مؤخرة السيارة مع المحافظة على أن تظل مغلفة بأوراق (العثرب) الخضراء لكي لا تذبل أغصان (القات) من الحرارة..

تلك كانت أهم المهمات التي كلفت بها... إضافة إلى إسدال ستائر السيارة الرمادية بعد أن تكن النسوة قد جلسن داخلها.. وكذلك الوقوف في مؤخرة السيارة.. حيث أرشدني السائق المشاكس كيف أضع قدمي على الحديد الأفقي في المؤخرة وكيف أمسك بيدي العمود المقوّس في مؤخرة السيارة.. وقد أجريت بعض التجارب قبل خروج النسوة من القصر وقبل أن يعلو حوارهن الصاخب ويُسمع بدرجة عالية ليغطي على صوت محرك السيارة وبوقها الملتهب!.

ما أصعبها من مهمة كلفت بها دون خيار! وخصوصاً أنني سأركب لأول مرة في حياتي سيارة.. وبالذات في مؤخرتها واقفاً متشعبطاً بين الحياة والموت!. ومع ذلك فقد علتني نوبة من الحماس والفرحة للقيام بهذه المهمة.. وكنت أعتبرها رحلة مثيرة فعلا.. فلأول مرة سأركب سيارة (تخنّ)[1] بذلك الصوت المفزع الذي يقلده الأطفال بأفواههم دائماً منذ شاهدوا سيارة البريد الأمامية الوحيدة تصل مدينتهم.. وسأتعرف على قصر الأمير سيف الإسلام ولي العهد الجديد الذائع الصيت في تلك القرية الرابضة على سفح الجبل الشامخ الذي اختاره ولي العهد مقرّاً لقصره الكبير..

---

(١) تخنّ: تصدر أزيزاً من محركها.

سأتعرف على أشياء جديدة لم أعرفها من قبل.. سأتعرف على (عكفة) ولي العهد بلباسهم الأزرق وأسلحتهم الحديثة الألمانية الصنع.. كذلك عبيده السود المرد ذوي الأنوف الفطساء والأجسام الطويلة المهابة! سأتعرف أيضاً على الأسود والضباع والنمور الكاسرة الرابضة في أقفاصها الحديدية داخل بهو قصر ولي العهد.. وسأتعرف كذلك على ذلك الحيوان العجيب.. الذي يطلقون عليه اسم (الوضيحي) أو المهاء العربي.. والذي يقال عنه بأن له قرنيْ وعل ورأس معزة وفم جمل وحوافر حمار وجسم بقرة وذيل حصان.. وله جلد ملون الشكل بجميع ألوان الحيوانات.. وبأن مخلفاته من نفايات عجيبة الشكل واللون ذات رائحة عطرية!

كنت أعرف من خلال ما قد سمعته بأن ولي العهد يحتفظ بهذه الحيوانات الكاسرة في مطابقها الحديدية المطلة على ساحة القصر لكي يتسلّى بها عندما يلقي في بعض الأوقات ببعض من خصومه إلى أقفاصها، وبأنه كان يتلذّذ برؤية ذلك المشهد الذي تقشعرّ له الأبدان ويشيب له الولدان.. على حد تعبير جدتي رحمها الله!

هذا ما دفعني للمغامرة بالقيام بمرافقة نسوة النائب ولعلمي بأن الشريفة حفصة ستكون إحداهن.. وبالتالي سألاقي منها احراجات وتعنّتات ومواقف أنا في غنى عنها.. ومع ذلك فهي مغامرة لا بد أن أخوضها.. كان قلبي يخفق لمجرّد اليقين بأن الشريفة حفصة ستكون من ضمن النساء!..

كانت سيارة البريد مغطاة من الأمام بقفص خاص بالسائق وراكب بجواره فقط... أما من الخلف الواسع فقد كانت مغطاة بقماش خشن رمادي اللون تتخلّله من جانبيه بعض نوافذ بلاستيكية صغيرة معتمة لا تسمح للضوء بالدخول بعامل تقادم الزمن!. وكانت الفتحة الخلفية للسيارة هي التي سيدخل منها النسوة.. وعليّ إسدالها بعد ذلك...

كان السائق عجولاً يحثّ بواسطة بوق سيارته الجميع للصعود.. وكان قد ركب بجواره في مقدمة سيارة البريد أحد الخاصّة من رجال النائب الذين يثق بهم ويركض إليهم للمحافظة على نسوة القصر!..

وأمرني السائق بفتح الستارة الخلفية بصوت وقح نزق لكي يصعد منها النسوة بواسطة درجات حديدية مثبتة على صدام السيارة الخلفي..

انفعلت غاضباً لوقاحته وزادني إثارة وقوفه المبتذل بجانبي يتطلع إلى وجوههن ويتمتع برؤيتهن ويكاد يلتهم بنظره أجسامهن!..

ولا أدري كيف واتتني الشجاعة.. وربما الغيرة فنهرته منهباً إياه لمسلكه هذا... فعاد إلى مكانه في مقدمة السيارة غاضباً.. تعلوه فترة اشمئزاز موجهة نحوي تحمّلتها برغم احتقارها لي من نظراته الشرسة العدوانية!..

وصممت على موقفي ونفذته رغم كل تعاليه المقيت واعتباره

إيّاه مجرد (دويدار) و (رهينة) في قصر نائب من نواب مولاه الامام!

كانت يدي اليسرى رافعة لستارة مؤخرة سيارة البريد.. ويدي اليمنى متأهبة لمساعدة أيّ من النسوة على الصعود إلى داخل السيارة وخصوصاً إذا كانت احداهن عاجزة لكبر سنها، وما أكثرهن في قصر النائب وملحقاته!

وبدأ صعودهن.. حتى نساء الجيران.. أعرفهن كلهن!..

كانت حواسي وكل وجداني.. ودقات قلبي الساذجة تدق بسرعة عند توقعي وصول الشريفة حفصة وصعودها من أمامي إلى السيارة!.

هل أنظر إليها؟ هل أجاملها ببشاشة إذا ما تكرمت بالنظر إلي وابتسمت إذا قدر الله؟. هل أقدم لها خدمة ذاتية إذا أتاحت لي الفرصة لعمل ذلك؟. أساعدها على الصعود.. أهتم بشرشفها من الاتساخ.. أوسع لها المكان المناسب داخل سيارة البريد.. مثلا.. أفرش لها بعضاً من ثيابي تحت كرسيّها الحديدي.. أنتشل حذاءها إذا سقط وأعيده إلى رجلها البضّة؟ ماذا سأفعل لها.. وماذا ستفعل بي؟.

ومرت العملية بسلام.. صعدن بانتظام.. وعندما حاولت الشريفة حفصة الصعود انزلقت قدمها اليمنى إلى الأرض فاختلّ توازنها مما جعلني أندفع تلقائياً لاحتضانها بخوف ووجل وحملتها مساعداً لها للنهوض إلى داخل السيارة.. لا أدري كيف غاصت

يداي في ثنايا جسمها كأنني ألمس شيئاً خرافياً مهيباً لذيذاً اهتز جسمي كله له.. وكانت مهتمة فقط باصلاح شرشفها وزينتها!..

لا أدري كيف أفلتت مني ابتسامة.. قابلتْها بأن كشّرت بهيبة كأنها نمرة بكر..

ارتاح قلبي ووجداني وجميع إحساساتي.. فقد عملتها الشريفة حفصة حركة لكي تربكني، وأضمّها بين ذراعي!..

هذا ما اعتقدته وهو صحيح منطقياً.. لكنها لا تريد أن أصدق ذلك.. وكيف لا أصدق ذلك وهي الشابة القوية الوحيدة من مجموعة نساء قصر النائب.. وقد طلعن كلهن بلا حادث على الإطلاق.. وهي الوحيدة التي تتعثّر على درجات السيارة بينما غيرها وهن عجائز لم يحدث لهن شيء؟!.

انبسطت أساريري ونفيستي لهذا الموقف.. وأسدلت الستارة الغليظة على مؤخرة السيارة لكي أكتم أنفاسهن.. ثم تشعبطت كما وجهني السائق النزق من قبل أن أختلف معه.. وقد أعطيته الإشارة بالمغادرة.. وان كان قد سبقني للتحرّك قبل ثوان مما كان سيؤدي إلى سقوطي على ظهري إلى الأرض!.

تحركت السيارة لتخرج من بوابة القصر نحو المدينة ذات الشوارع الضيقة التي لم تكن في الحسبان أنها ستمر بها آلة ذات إطارات أربعة تُقلّ أكثر من شخص أو شخصين! ومرقت بنا السيارة من الباب الكبير للمدينة لكي نتسلق بعد ذلك عقبة مرصوفة بالحجارة السوداء.. شُقّت بهذه الطريقة منذ مئات السنين منذ عهد الملكة (أروى) والمعدّة للقوافل...

ما زلت متشعبطاً حسب توجيهات السائق النزق قبل اختلافي معه.. ولكنني شعرت بالإعياء نفسياً..

وفتحت الشريفة حفصة الستارة الغليظة بعصبية كادت أن تربكني لأسقط منبطحاً على الأرض لولا أنني تماسكت...

ونظرت إليها بحزم محاولا إعادة الستارة الغليظة على ما كانت عليه.. فصاحت في وجهي:

- دعها مفتوحة.. حتى نشم قليلاً من الهواء!.

وارتبكت لصوتها الذي يستولي على كل حواسي.. وجاهدت لكي أزيح الستارة الغليظة إلى سطح السيارة مما أدى إلى ترنُّحي وكدت أقع إلى الأرض فصاحت بالسائق بأن يقف مشركة يدها بالدقّ على نافذته الزجاجية ومكررة نداءها القوي له قائلة:

- أوقف السيارة..

وتوقف السائق النزق لصوتها الآمر الذي لا يرد وهو يتساءل عن السبب.. فقالت بحدة:

- أتريد قتل الرهينة.. الدويدار؟.

- معاذ الله!.

- دعه يدخل ليجلس بيننا.

وتململ المرافق الخاص الجالس بجانبه بالموافقة له بذلك فقال السائق:

- فليدخل يا سيدتي!.

وأمسكت الشريفة حفصة بتلابيبي وجذبتني إلى جانبها وأنا في غاية الخجل لهذا الموقف!.

كانت الطريق وعرة وحركة السيارة المهتزة.. وجسمها يحتكّ بجسمي وأنفاسها تلدغ خدي.. وتقيأت بعض النسوة وبعضهن اندمج في حديث لم أستوعبه.. لكنها لم تكن معهن مشتركة.. كانت تنظر إليّ وتبتسم ثم تكاد تضحك.. بل انفجرت بضحكة بعد ذلك مدوية صمتت إثرها النسوة عن التقيؤ والحديث ونظرن إليها باستغراب.. وخيل إلي أنهن نظرن إليّ أيضاً.. ولم تعرهن اهتماماً فبدأن بالحوار من جديد ولو أنه حوار ملفّق!.

كان العرق يتصبب من وجهي بغزارة ويكاد أن يبلل جميع ثيابي.. قالت وقد لكزتني بكتفها:

- ما لك هكذا.. كالأهبل!؟.

ولم أجب.. وبللت شفتي بطرف لساني فقالت:

- صامت كأنك صنم!.

- ... لأول مرة أركب سيارة..

- أتشعر بالغثيان؟.

- لا أدري..

ومدّت إليّ بطرف من شرشفها إلى أمام وجهي وهي تضحك وتهمس ساخرة:

- أتريد أن تتقيأ مثل بعضهن!.

- إذا لزم الأمر سأفعل ذلك خارج السيارة.

وغضبت فجأة قائلة:

- مالك هكذا؟. كأنك جالس فوق جمر!.

- وأكثر!.

- ... تعرف كل من في السيارة!. أليس كذلك؟.

- لا أنكر.. أعرف معظمهن.

- تتصنّع الخجل والحياء؟.

- لا أتصنع شيئاً من ذلك.

- ستقول بأنك هكذا.. منذ خلقت!.

- نعم.

- لا تضحك عليّ.. خبّرني من منهن لم تضاجعها؟!.

لم أجب.. فقالت:

- أهي تلك ابنة عم النائب؟. أو تلك التي تنظر إليك باشتهاء؟. هي أحد أفراد الأسرة.. لكنها تسكن الريف!.

أجبتها وأنا أودّ لو أتمكن من الوثوب من السيارة إلى الطريق:

- أرجوك.. لا تحرجيني أكثر من هذا.

- هل قلتُ شيئاً كاذباً؟

- سأنزل الآن من السيارة.

- مستحيل ذلك.. فسأتبعك.

- لكني لم أعد أطيق مثل هذا الهذيان.

- أتجسر على قول هذا؟

- هي الحقيقة.

- وتؤكد ذلك لي.. وأنا أخت النائب.. الشريفة حفصة!.

- ... تعاملينني كطفل ساذج.

- أريد أن أراك رجلا!.

- أنا رجل.

- لم تبرهن على ذلك مطلقاً!.

- ... أتريدين أن أكون فاسقاً؟.

- معاذ الله يا سيدي فضيلة الوالد العلامة!؟.

....

حمدت الله على وصولنا إلى قصر ولي العهد.. حيث وثبت سريعاً لكي أفسح المجال للنسوة بالنزول من السيارة.

كنت أتوقع أن تنزل على اثري الشريفة حفصة لقربها من الباب بجواري.. لكنها تأخرت إلى النهاية..

قالت وقد نزلت:

- لا تغب عنا فنحن في حاجة اليك... وبعد تناول الغداء أحضر (القات)...

ألقت كلامها كأمر صارم وجل له السائق النزق وحتى المرافق الخاص وحاول بعض النسوة الأخريات تقليده وتكراره فلم يكن لمحاولتهن ذلك صدى، سوى استهزاء السائق النزق الواضح بهن!.

ومكثت في ساحة قصر ولي العهد والقات معي ولا أدري ماذا أعمل.. كنت أشاهد (عكفة) سيف الإسلام ولي العهد الحرس الخاص يتمخطرون بزيّهم التقليدي الأزرق اللون وصياحهم الدائم.. كان المرافق الخاص الذي جاء معنا وهو عجوز.. قد

تقرفص بجوار حائط واتكأ على حجر وبدأ يتناول القات قبل أن يتغدّى.. ولا كلام لديه فهو صامت.. فقد أحسن النائب اختياره لمثل هذه المهمات.. لم يتعرف بي بالرغم من أنني أعرفه في قصر النائب.. لم يحاول حتى مجرد إرشادي أو الحديث معي في أي شيء.. تركته في مكانه المختار مرتاحاً فيه واتجهت إلى الساحة الواسعة أبحث عن مكان الوحوش.. أريد أن أعرف أشكالها.. كنت قلقاً على القات الذي تركته بجوار المرافق العجوز فلا بد أن يأخذ منه خلسة لكي يواصل ارتياحه في مكانه المختار.. كم هو شغوف بالقات حتى على حساب غذائه!

وصلت إلى أقفاص تلك الوحوش الكاسرة.. أسود ونمور وضباع.. هذا كل ما يحويه حوش سيف الإسلام ولي العهد من حيوانات كلها تمثل البؤس والرعب.. كنت أبحث عن ذلك الحيوان العجيب المسمّى (بالوضيحي).. وقد عرفت بعد ذلك بأنه (المهاء)... اندهشت حين قال لي أحد العكفة بأنني سأجده خارج بوابة القصر يرتع بين الناس المنتظرين أي إفادة من ولي العهد لقضاياهم التي جاءوا من أجلها وبعضهم من أماكن بعيدة.

مللت التسكع في جوانب القصر وقد شعرت بأنني كالغريب.. وأثناء ذلك أقبل نحوي عبد أسود كأنه الليل الحالك ضخم الجثة.. يلبس لباس (العكفة) وبجواره فتى جميل... أدركت انهما يبحثان عني..

واتضح لي بأن ذلك الفتى الجميل هو دويدار سيف الإسلام

ولي العهد الخاص.. غلام بضّ الجسم.. جميل الشكل.. نظيف الملبس.. قال لي متسائلاً:

- هل أنت دويدار بيت النائب؟.

لم أكن قد شعرت بأن لفظة (الدويدار) تصفعني في أي يوم كهذا اليوم!.

هزت رأسي على مضض.. فقال بعد أن تفحصني:

- يبدو أنك رهينة من القلعة!؟

هزت رأسي مرة أخرى.. فمط شفتيه إلى أعلى ثم قال:

- ليس مستحباً أن يكون الدويدار من الرهائن!.

قلت بارتياح:

- فعلا.

وكتمت كلاماً كنت سأقوله.. لكنه قاطعني قائلا:

- لأنهم سيئون ومشاكسون ويهربون دائماً!.

طرقت مسمعي بانتباه كلمته الأخيرة فابتسمت أسأله:

- ماذا تريد؟.

قال بتخبث واضح:

- أنا؟. لا أريد منك شيئا!. الشريفة حفصة أصرّت عليّ باستدعائك.. ولا أدري ماذا تريد منك؟.

- إذا كانت تريد القات فقد تركته عند المرافق الخاص العجوز.

- لقد أخذناه من قبل.. هي تريدك شخصياً..

اتجهت خلفه والعبد الأسود خلفنا.. كنت ألاحظ حركات

جسمه الرخو من خلال ثوبه الحريريّ الشفاف.. يبدو أنه لم يعد يتصنّع تلك الحركات المائعة فقد أصبحت منتظمة لديه وطبيعية وعادية!.

اخترق بي ممراً طويلاً ثم وصلنا إلى بهو مكشوف تهسهس فيه أصوات مياه (الشذوران) الصافية وسط فسقية مدورة وواسعة أكبر بكثير من فسقية قصر النائب.. وبداخلها زورق صغير يعوم فيه فتى وسيم في الثالثة عشرة من عمره تقريباً.

واقترب هذا الفتى بقاربه نحونا.. ومد يده إلينا.. انتظرت بأن يقوم الدويدار الخاص بولي العهد أو عبده بمساعدة الفتى لارتقاء حافة البركة من القارب.. ولكنهما لم يأبها له.. فقدرت أنّ من الواجب علي مساعدة فتى يطلب العون على الصعود من البركة.. ومددت يدي إليه لكي أجذبه مساعداً له على الصعود.. وفجأة أطبق على كفي وجذبني بعنف فسقطت وسط البركة بجميع ثيابي وأصبت بحالة مربكة داخل الماء. كدت أن أختنق لتسرّب الماء إلى حلقي وأنفي، وقد ساعد على ذلك ابتلال ملابسي مما عاقني على التخلص من الغرق والعودة إلى حافة البركة.

واستطعت أن أضبط النفس وأتحكم في حالة الغرق بعد ذلك وعلتني موجة من الغضب لهذا الموقف السخيف الذي ضحك له ذلك الصبيّ الطفل المدلل وجامله الدويدار الخاص بولي العهد المخنث وعبده الأسود العملاق.

كان لا بد أن أقلب القارب رأساً على عقب ومن بداخله..

وقد فعلت ذلك وبعنف.. وتركت الصبيّ المدلّل يتخبّط مع قاربه وسط الماء بينما صاح الدويدار مستنجداً فهبّ بعض عكفة وعبيد ولي العهد نحونا.. ودهشت لوثوبهم جميعاً بملابسهم وأسلحتهم وذخائرهم إلى وسط البركة لكي ينتشلوا ذلك الصبي المدلل الذي كان يتأوّه بصوت مفزع يطلقه من أحشائه.

كنت مشغولاً بعصر ثيابي من الماء وهي ما زالت على جسدي.. وفجأة شعرت بلطمة غادرة ومركّزة على أذني اليسرى وبقية خدّي طار لها صوابي وتجاوبت صداها المزعج في جميع مرافق رأسي..

وتلفتّ حولي فاتضح لي بأن تلك اللطمة قد قام بها ذلك الصبي المدلل فأمسكت بتلابيبه وانهلت عليه لطماً وركلاً بعد أن بطحته أرضاً وكدت أدوسه تحت قدمي لولا تدخل العكفة والعبيد..

تحوّل ذلك اليوم الذي كنت أعتقد أنني سأتمتّع به وأتعرف من خلاله على أشياء جديدة أو على الأقل أغيّر جو دار النائب الكبير وملحقاته ومن فيه!.

تحول ذلك اليوم إلى يوم شؤم ومتاعب لم أكن أتوقّع حدوثها.. ولم تكن تخطر ببالي!. كنت أتوقع أن أسقط من على خلفية سيارة البريد.. أن أضيع بعض حزم القات.. أن أصطدم بالشريفة حفصة وباحراجاتها.. أن أقابل مثلا الشاعر الوسيم.. والذي لا بد أن يعاملني بقسوة وإذلال!.

كنت أتوقع مثلا أن تلتهمني وحوش سيف الإسلام وليّ العهد الكاسرة وأنا أتفرّج عليها!. لكنني لم أكن أتوقع أن يؤذيني صبيّ طفل مدلل وبهذه الطريقة!.

كنت متوثباً للردّ على أي اعتداء آخر متوقّع، وخصوصاً بعد أن أخذني بعض العكفة والعبيد إلى البوابة الخارجية للقصر وأدخلوني إلى مكان الحراسة كأنني سجين. واتضح لي بعد ذلك أن الصبي الطفل المدلل هو فتى الأمير سيف الإسلام ولي العهد الذي يراه الدنيا بكلها!.

قال لي كبير العكفة:

- ماذا فعلت يا مجنون؟!.

- وماذا فعلت؟

- اعتديت على غلام مولانا ولي العهد!.

- كان هو المعتدي.

وصمت برهة ثم قال:

- أنت محبوس لدينا.

لم أجب.. فاستمر وقد خفت صوته قائلا:

- حتى تستطيع الشريفة حفصة إنهاء الموضوع بطريقتها!.

أثارني قوله ذلك فقلت:

- وما دخل الشريفة حفصة بهذا الموضوع؟.

- أنت غلامها الخاص وهي المسئولة عنك!.

غلام.. صفة ثالثة أوصم بها فقلت:

- لست غلامها.. وليست المسئولة عني.

- عجيب قولك هذا!

- ما الغرابة فيه؟.

- لقد قلبت الدنيا رأساً على عقب من أجلك.. حتى أنها

استطاعت مقابلة مولانا ولي العهد!.

- وهل قابلت الشاعر؟

- من تقصد؟. لا أفهم!.

- الشاعر الوسيم.

- آه.. أتقصد الاستاذ.؟

- أقصد الشاعر.

- نعم.. الشاعر هو الاستاذ!. فهو يقوم بعض الأحيان بتدريس أولاد مولانا ولي العهد..

- ربما يكون هو!

- .. إذا كنت تقصده.. فقد وقف مع الشريفة حفصة مدافعاً عنك.

تألمت لهذا الخبر.. وخفت أن يشعر كبير (العكفة) بشعوري فقلت وقد لمت مشاعري محاولاً نقل الحديث إلى موضوع آخر:

- من يكون هذا الغلام حتى أعاقب من أجله؟.

- أولم تعرفه من قبل؟.

- ولم أسمع عنه.. فمن أين لي معرفته!.

وابتسم قائلا:

- هو الوحيد من خلق الله الذي يحبه مولانا سيف الإسلام ولي العهد.. ويفضله حتى على أولاده وزوجاته وكل شيء في الدنيا!.

واسترسل بطيبة وشفقة بي.. وعرفت أنه أحد أبناء سائقي ولي العهد وله جذور تمتّ إلى أصل تركي أو أن أمه من أصل تركي.. وقد تعلّق به ولي العهد بحب غير طبيعي حتى أنني شممت رائحة

دعاية بأن يكون هذا الغلام ابناً غير شرعي لولي العهد.. وهذا ما هو مزعج للجميع!.

فباستطاعة هذا الغلام ومنذ صغره أن يلعب مع ولي العهد في غرفته الخاصة التي لا يدخلها ابناؤه الخلّص ولا زوجاته الجميلات.. ويلبي له كل طلب مهما كان مستحيلاً.. حتى أنّ باستطاعته العبث بذقن ولي العهد وشاربه!. وباستطاعته أن يصيح ويزعق في مجلس ولي العهد الرسمي المهاب ويقلب ذلك المجلس رأساً على عقب!.

وعرفت بعدذلك ،وقد هدأت نفسيتي ، أن الحادث لم يصل إلى ولي العهد بالصورة المرعبة التي كنت أتوقعها.. فقد استطاعت الشريفة حفصة وذلك الشاعر الوسيم إقناع ولي العهد بأن الحادث عادي وأستطاعا حجب الضجة المثارة عنه والتي كانت قد عمّت القصر كله..

كان المغيب قد دنا.. وسمعت صوت كبير العكفة بعد ذلك يناديني بأن أخرج لكي أغادر سجنه لأركب مع النسوة العائدات على السيارة نفسها إلى دار النائب.

وثار الحديث داخل السيارة بين النسوة حول ما حدث وما فعلت.. وصاح بعضهن في وجهي بأصواتهن الكريهة وقد كشّرن عن أفواه قبيحة تبرز منها أسنان عطبة منحلّة وبعضهن بلا أسنان.. كان موقفهن مني كأنني قد اخترقت السماء.. وارتبكت جرماً لم يرتكبه أي بشر منذ بدء الخليقة حتى هذه الساعة!.

كنت قابعاً بجوار الشريفة حفصة التي كانت قد جذبتني للجلوس بجوارها كما كنا ولم تدعني أركب مستقيماً في خلفية السيّارة.

كانـت صامتة تنظر إلى النسوة وقد أفرغن كل كلامهن الغاضب علي من لوم وشتم وقدح وتجريح أنصب على رأسي.. وهي ما زالت تبتسم فقط.. وتضحك بعض الوقت.. تلك الضحكة الساحرة لفؤادي ووجداني!.

قالت إحدى النسوة:

- يا لطيف.. لو علم مولانا ولي العهد بذلك لقلب الدنيا على رؤوسنا!.

وقالت أخرى:

- مصيبة كبرى.. وخصوصاً إذا علم الآن سيدي النائب لقلب الكون علينا أيضاً!.

وقالت أخرى:

- فهو لا يرضى بما حدث..

وقالت أخرى:

- سترك يا رب.. لقد كانت مصيبة فعلاً والحمد لله أننا تخارجنا منها.. حتى الآن!.

وقالت أخرى:

- لا ندري ما هو الداعي لاستصحاب دويدار رهينة معنا لا يعرف الذوق ولا الأخلاق ولا الأدب!؟.

كدت أن أنفجر لهذا الحوار المقيت فأخرجت رأسي إلى خارج السيارة.. ثم حاولت الخروج بكل جسمي لكي أتشعبط وأبتعد عنهن، لكن الشريفة حفصة كانت تجذبني بشدة وعنف للبقاء بجوارها وهي تبتسم لكلام النسوة.. وتضحك بعض الأحيان باستخفاف!.

قالت أخرى من النسوة:

- من الخطأ تكرار ذلك مرة أخرى.

وأجابتها واحدة منهن بجرأة:

- أحدانا هي السبب في كل ما حدث!.

وابتسمت الشريفة حفصة متربصة بسخرية ثم قالت:

- يا إلَهي؟. هل كل هذا الكلام شفقة بغلام ولي العهد أم تشفٍّ بالرهينة الجالس بجواري؟!

وصمتن إثر تجلجل صوتها المصحوب بضحكاتها المستهرئة.. ومرت لحظة ولم أشعر إلا بالشريفة حفصة تدفع بي نحوهن فجأة!. فارتبكت حين وقعت في أحضان بعضهن.. وهي تقول:

- حسدتموني عليه لجلوسه بجواري:. ولم أحسدكن وهو في فراشكن كل ليلة!

قالت إحداهن وقد تمالكت أعصابها:

- لا تغتري بأنك الزليخا.. زوجة عزيز مصر!.

فأجابت الشريفة حفصة بسرعة:

- وليس هو يوسف يا غبية!.

غمرني الخجل لهذا الموقف السخيف الذي لم أكن أتوقّعه. وفي

خضم هذه الدربكة كان نظري قد استقر على الفتاة الريفية القابعة بذهول وخجل في ركن السيارة أكثر مني والصامتة دائماً!.

وفي لحظة سريعة اندفعتُ إلى مؤخرة السيارة، وكانت قد مرقت تواً من الباب الكبير للمدينة، ووثبت إلى الشارع الخالي المقفر المقفلة حوانيت سوقه بحسب العادة وبالقوة وقت صلاة المغرب والعشاء إذ لا يوجد سوى بعض (القوانين) الشرطة بإرشاداتهم النحاسية المتدلّية من أعناقهم على شكل هلال مع زعيق صفاراتهم النحاسية والموروثة منذ عهد الاحتلال التركي..

ومرقت إلى شارع ضيّق لا أعرفه.. واندفعت ولم أتوقف.. ولم أشعر إلا بأنفاس تلهث بعدي بخطى سريعة.. مثلي.. كانت هي الشريفة حفصة.. لا غيرها!.

وأمسكت بذراعي بقوة قائلة:

- أين أنت ذاهب؟.

- اتركيني من فضلك.

- لن أتركك.

- سأستخدم القوة نحوك لتركي!.

- لا يهمّ.. يا جبان.

وأزحتها بعنف حتى كادت أن تسقط على الأرض.. لكنها عادت فأمسكت بي بقوة مستعملة كلتا يديها.. وقد انقشع عنها الشرشف الأسود لتظهر معالم أنوثتها الطاغية.. وكدت أن أهوي بيدي على وجهها.. لكنني تراجعت وقد ظهر ذلك الوجه الجميل على ضوء القمر وقد طار عنه الخمار فقالت متحدية:

- اضرب.

- ......

- ما بالك لا تفعل ذلك؟

- ......

- أريد أن أراك رجلاً!.

وهويت بيدي.. ولكن إلى فخذي وقلت بسماجة مهزوم:

- أرجو أن تصلحي «الشرشف» حولك!.

وضحكت قائلة:

- ألم أقل لك إنك ما زلت طفلاً!.

تمالكت هياجي الغاضب العنيف.. وأنا على يقين بأنها تعرف أنني رجل.. لكننا الآن في شارع والناس سيلتمّون حولنا بعد خروجهم من المساجد وكان قد خرج بعضهم فعلاً.

قلت لها بتروّ:

- أرجوك أن تتركيني أذهب وشأني.

- لن أتركك فأنت رهينة.. رهينتي.. الحالي!.

- رهينة.. دويدار.. غلام.. لست عليّ بحارس.

- بل أكثر!.

وتخلصت منها مندفعاً فصاحت:

- أتتركني لوحدي.. وأنا لا أعرف الطريق إلى البيت؟.

- بل تعرفين الطريق جيداً.

- حتى لو عرفت ماذا سيقول النائب.. والآخرون؟.

- سهرة من إحدى سهراتك المعتادة خارج القصر والتي تقضينها

إلى وقت متأخر من الليل أكثر بكثير من هذا الوقت!.

ولم أشعر إلا بحجر قد قذف إلى ظهري بقوة مصحوباً بصوتها المبحوح الرخو الذي كانت تحاول أن يكون صراخاً يصيح بي:

- لن أتركك تذهب.

ولم أجب.. وقد تلمّست موضع الألم في ظهري فصاحت أكثر:

- سأستدعي جميع الناس.. الخارجين من المساجد لكي يلقوا عليك القبض.

- ستكون فضيحة بالنسبة لك!.

- فضيحة عليك وحدك لأنك هارب.

ولم أجب وأنا أخبّ في طريقي المجهول.. فقذفتني بحجر آخر آلمني.

ووقفت غاضباً متألماً وقد أخذت ذلك الحجر من الأرض وهويت به نحوها بعنف.. لكن لم أكن أقصدها في اللحظة الأخيرة فقد طوحت به بعيداً عنها.. وأعتبرته تحذيراً لها لكي لا تتمادى أكثر..

لكنها لم تتراجع.. بل أخذت حجراً آخر ووثبت به نحوي.. فوقفت متحدّياً وفي الوقت نفسه مستسلماً..

وهرعت نحوي والحجر بيدها.. واقتربت مني حتى كدت أتوقع ارتطام الحجر في رأسي لينزف دماً وألماً.. لكنها هوت بالحجر بعيداً وألقت بجسمها ويديها تحتضنني بشغفٍ لم أعهده حتى من والدتي!. والدتي الحنون!.

وانحنت إلى الأرض لتلتقط الحجر مرة أخرى مصحوباً بتشنّجاتها الصادرة من قلبها الذي لم أعهده من قبل.. وان كنت قد سمعت دقاته وأثّر في قلبي الولهان وكل حواسي المرهفة..

وألقت بالحجر بعنف إلى الأرض وقد تمسكت تلابيبي.. فقلت وأنا أسمع نشيجها:

- ما بك؟.

لم تجب.. وقد شممت في تشنّجها القريب إلى صدري رائحة الجنة.. حاولتِ انتزاعها من على جسمي وقلت متسائلاً مرة أخرى:

- ما لك؟.

- لا شيء.

وصمتت برهة وهي بين أحضاني أو أنني كنت بين أحضانها.. وتململت قليلاً من بين أحضاني مبتعدة بجسمها فقلت:

- هل سأعود إلى السجن.. والحبس.. والقيد؟!.

- لا ينفع معك غير ذلكْ!.

....

ومضيت بعدها بخطوات رتيبة كأنني أسير حرب وهي تخطو نحو مدخل القصر.. وما أن دخلنا من البوابة الرئيسية حتى قام بعض العسكر باحتجازي عن أمر صدر من الشريفة حفصة!. وقام بعضهم بدق قيد حديدي على ساقي.. ثم انصرفت الشريفة نحو دارها!.

ورحب بي العسكر والبورزان ببشاشة زائدة.. عكر صفوها

شجار كاد يحدث بين العسكر والبورزان حول مكان مرقدي.. وانتصر البورزان حيث أخذني إلى صومعته الخاصة وقد صعدت معه والقيد الحديدي برجلي وهو يساعدني على ارتقاء درجات (النوبة) قائلا:

- عساكر أوغاد.. لا أمان بينهم.

هززت رأسي شاكراً له حسن تدبيره وأنا لا أعرف السبب في إكرامه لي شخصياً.. كنت أتمنى أن أحبس في غرفة صديقي.. لكنني لم أره وربما لا يعرف بمصيري، ومع ذلك فلقد انتابني شعور بالابتعاد عنه وأنا في هذا الموقف.. وليكن البقاء لدن البورزان فهو بلا شك أخف وطأة من زملائه العسكر الآخرين..

وما أن دخلت معه الغرفة حتى وضع بندقيته جانباً وقام ففرش لي فراشاً ثم أعطاني كل ما احتاج إليه في مرقدي من مخدة وكيس للنوم ولحاف.. واستأذنني ليخرج ومعه أدوات نومه معتذراً بأن عليه الليلة نوبة الحراسة.. ونصحني أثناء مغادرته الغرفة بقفل بابها من الداخل!. ومضى.

أعرف أنه شهم ونبيل بالرغم من تصابيه وهفواته العديدة التي تؤخذ عليه..

ورغم تقديري الحارّ له هذه الليلة إلا أنه خامرني شك بأن لديه موعداً غرامياً مع احدى نساء القصر!.

وبالرغم من أنني لم أتأكد من صحة وهمي هذا.. فإنني قد سمعت في تلك الليلة، والناس نيام، أصواتاً وحركات مشبوهة

وحذرة خلف باب غرفته.. أدركت أنها صادرة عنه وعن واحدة من نسوة القصر لم أميّز صوتها!.

وأسبلت عينيّ للنوم كرهاً لكي أغفو بعد يوم شاقّ وأحداث جسام لم يكن يخطر على بالي أنني سأمر بها!. لكن النوم لم يأت، فقد كان ذهني مشغولا بتقييم تصرفات الشريفة حفصة في هذا اليوم الذي مر.. كيف أفسر كل ما حدث؟. وكيف أقنع قلبي وعقلي وجميع حواسي به. وهل كل ما جرى في هذا اليوم الراحل هو حب أم مجرد لعب؟!.

......

رغم سهري فقد قمت مبكراً مع بداية ومضات الضوء البكر للفجر الذي دخل الغرفة.. وتدريجياً استطعت أن أرى بوضوح وضع الغرفة التي نمت فيها مكرهاً والتي كنت قد دخلتها ليلاً على ضوء لمبة جاز واهية الضوء!.

كل شيء في هذا المكان المستدير منظم ومرتب ونظيف أيضاً.. لم أعهده حتى في بيت النائب نفسه!.

فراشه معدّ ولحافه مطروح بنظام.. وصناديقه الخشبية الملوّنة نظيفة رغم قدمها!. وبعض أدواته الخاصة معلّقة على الجدران بترتيب غاية في الدقة ومتناهية في التشكيل والتماثل الدالّ على الذوق الخالص..

وفي أسفل المكان جرّة ماء وموقد للنار وبعض أوانٍ فخاريّة ونحاسية تستخدم للطبخ ومغطّاة كلها (بقوّارات)[1] من القماش

(١) جمع (قواره) وهي غطاء من القماش مزركش مصنوع باليد.

المزركش.. حتى حذاؤه له مكان خاص يضعه فيه دائماً.. أما بوقه النحاسي المزيّن بعذبات متدلّية ومزركشة فقد عُلّق في مكان لطيف وغطّي بمنديل حريري شفاف..

حسدته على هذه الحالة التي هو عليها من الترتيب ودقة النظام التي تطيل العمر..

وقمت لأفتح الباب.. وجدته راقداً خلفه في موضع يطل على ساحة القصر.. وبندقيته تحت فخذه وشخيره يعلو برتابة!.

تردّدت كثيراً.. لكنني أيقظته لكي يكمل نومه داخل الغرفة.. وقام فزعاً.. ثم لملم أشياءه كأنه كان يتوقع أن أقوم بهذا التصرّف نحوه!. وهمد في داخل الغرفة في نوم عميق بعد أن أقفل الباب ورائي..

استقبلني من كان قد استيقظ من العسكر في نهاية درجات سلم نوبة (البورزان) وأنا أتهاوى بقيدي الحديدي.. مكشّرين وقد علا صوتهم بالزامل المألوف (يا دويدار قد أمك فاقدة لك.. دمعها كالمطر)!.

هجعت في مكان بجوار البوابة الرئيسية ذات الهواء العليل وقد اتكأت على حجر معدّ لذلك ونظرت إلى الميدان الفسيح غير آبه بزاملهم..

وأقبل صاحبي الدويدار مسرعاً نحوي وسلم علي بلهفة ثم جلس بجواري وبيده طبق من خزف بداخله كعك وأشياء أخرى تؤكل وموزعة على أوانٍ صغيرة داخل الطبق.. عرفت أنها من منزل

الشريفة حفصة لمعرفتي بما تستخدمه من أطباق وأوانٍ في الحفلات الهامة!.

لمحني وقد انقبضت سحنتي.. فلاطفني بكلام عاطر لصباح يوم جديد!..

قال مداعباً:

- ماذا فعلت يا مجنون؟!.

- لم أفعل شيئاً.

- هه!.

- ماذا تقصد؟.

- بعض أشياء عرفت بحدوثها أمس..

- وثبت هي خلفي من السيارة.. هذا كل ما حدث!.

- من هي؟.

- الشريفة حفصة؟.

- لا أقصد هذا الحادث.

- ماذا تقصد؟.

- لقد فعلت أكثر من ذلك!.

- .. لا أتذكر!.

- قيل إنك ضربت ولد وليّ العهد؟!.

- أتقصد ذلك الطفل المدلّل الذي أعتدى عليّ بإلقائي داخل البركة بكامل ثيابي وبدون سيب.. وكنت أعتقد أنني أقدم له خدمة بإنقاذه!؟.

- نعم.. أقصد هذا الحدث..

- قضية انتهت وقد نال جزاءه!.

- هل أنت مجنون أم أنك غبي؟

- أفضل في هذه الحالة أن أكون مجنوناً!.

- هذا أكيد!.

- ربما أكون مجنوناً الآن!

صمت لحظة ثم قال:

- ذلك الصبي.. هو ابن ولي العهد غير الشرعي والذي يراه الدنيا كلها.. ويفضله على كل شيء وعلى أبنائه الشرعيين!.

- لا أفهم ماذا تقصد؟.

- وهل تعرف وتفهم ما هي أهمية الابن غير الشرعي لسيف من سيوف الإسلام وولي العهد؟!.

- لا..

....

قادني وهو يحكي لي حكاية عجيبة.. إلى أحد العساكر لفكّ قيدي بأمر من الشريفة حفصة معمّد من النائب مبالغة في أهميتي لديها!.

قال ونحن نسير نحو الغرفة:

- لقد كانت ليلة!.

كنت أفكر لماذا لم أقاوم هذه المرة عند فكّ قيدي، عندما خضعت بسهولة وربما برغبة لفك قيدي.. ولكزني بكوع يده فقلت:

- خيراً.

- كانت ليلة.. دار فيها حوار صاخب داخل القصر.

- هل حدث شيء؟..

- لا!. انما كان عنك وعن الشريفة حفصة.. وضربك لغلام ولي العهد.. وغيابك المشبوه مع الشريفة حفصة.. ليلاً!؟.

لم أجبه فقد كنت أسترجع أحداث اليوم الذي مر.. فقال:

- لا بد وأن يطلبك النائب اليوم لمقابلته ليعرف القضية وخصوصاً بعد أن دافعت عنك الشريفة حفصة إلى درجة بكت فيها أمام النائب الذي أشفق عليك من بكائها الحار. وأنت تعرف مكانتها عنده!.

هالني تصوّر منظرها الباكي المتشفع أمام النائب وإن كنت لا أصدق أن تكون هذه الشريفة قد وقفت ذلك الموقف وهي التي لا تبكي مطلقاً!.. ولم أشعر الا بعينيّ تغرورقان بالدمع الذي لم أستطع اخفاء انسياح قطراته على خدي.. وإذا صح أنها بكت وبذلك الصوت الرخو الأشحب الذي سحرني دائماً فقد حدثت معجزة وأي معجزة!

مسحت دموعي وقد شعرت بأهميتي وقيمتي لديها.. فقد أصبحت أحتل من قلبها ووجدانها جزءاً لا بأس به!.

....

استدعاني النائب إلى منظرته الفخمة المفضلة التي يخلو فيها إلى نفسه لحظات من الصباح الباكر كالعادة يسحب أنفاساً من دخان (المداعة).. ويطل من النافذة الواسعة على ساحة قصره وملحقاته يراقب كل حركات سكان هذه المملكة الخاصة.

كان منبطحاً حسب العادة بكرشه الكبير وفخذيه المطويتين على بعضهما البعض.. ودخلت من باب المنظرة الفخمة وألقيت بتحية الصباح.. وكالعادة لم يردّ بأحسن منها ولا بمثلها!.

كان شارداً أكثر مما عهدته دائماً في مثل هذه الساعة التي يكون فيها أرق طبعاً وأحسن حالاً من أي ساعة أخرى..

وطال انتظاري واقفاً عسى أن يلتفت إليّ لكنه لم يعرني انتباهاً.. وتنحنحت محدثاً صوتاً معتاداً في مثل هذه المواقف فالتفت إليّ وقال:

- هه.. اقترب..

واقتربت نحوه وما زلت قائماً حيث تربّع في مجلسه وقد برز كرشه السمين إلى الأمام قائلاً:

- ماذا فعلت في قصر ولي العهد؟.
- لم أفعل شيئاً.
- كيف؟. وكل هذه الضجة الصاخبة!
- مجرد ضجّة لا أساس لها من الصحة.
- لا أصدقك.. لقد فعلت شيئاً ما سيئاً!.
- وما هو؟
- أتسألني!؟.
- ومن أسأل!.
- لا تكن وقحاً.
- لست بوقح.

ورمى بقصبة المداعة جانباً ثم تراجع وقد خفف من توتره قائلاً:

- أين ذهبت مع الشريفة حفصة بعد ذلك؟.

- إلى هنا..

- كذب!.

- هل هنالك معلومات لديكم عكس ما ذكرت؟!.

صمت برهة ثم أعاد قصبة المداعة إلى فمه من جديد وقرقر بها قائلا:

- تأخرتما عن الركب.. أعني عن باقي النسوة!.

- فضلت المشي برجلي بعد وصولنا المدينة لازدحام السيارة.

- والشريفة حفصة؟.

- تركت السيارة أيضاً للسبب نفسه واتجهت معي ماشية إلى هنا.

- لماذا؟.

- للسبب نفسه.. وقد حبذت أيضاً السير لخلوّ الشارع من المارة في تلك الفترة.

- هذا كلام لم أسمعه حتى من الشريفة حفصة!.

ولم يكمل وقد كنت على استعداد للردّ عليه إلا أنه قال بصوت حاد وغاضب:

- هذه أول وآخر مرة أسمح لك بهذا.

لم أجبه وقد طأطأت رأسي.. فقال:

- إعرف ذلك جيداً.. وخصوصاً في هذه الأيام المقبلة.

لم أجبه أيضاً.. فقال مستفسراً مرة أخرى:

- وماذا فعلت بغلام ولي العهد؟.

- كان هو المعتدي.. وقد حصل ما حصل.

- لا تكرر ذلك مرة أخرى بعد الآن.

- .. سمعاً وطاعة.

- لا تظنّ نفسك في بلادك تفعل ما يحلو لك عمله.. أنت هنا رهينة ودويدار.. فارْعَ النعمة التي أغدقت بها عليك وجعلتك تنزل من قلعة الرهائن إلى قصري لتنعم بالعيش الرغد..

- أود أن أعود إلى قلعة الرهائن.

واستشاظ غيظاً صائحاً:

- هذا مستحيل.

- ليس مستحيلا.. فقد بلغت الحلم.

- لا تكذب!.

- هذا صحيح.

- لا تعرف شيئاً.. فأنت جاهل.

- أعراض ذلك واضحة على جسمي.

- لا يبدو ذلك!.

- أتريد أن أريك؟

- أنت وقح.. وتحلم فقط.

- هي الحقيقة.. ولماذا أحلم؟.

- لكي يقال عنك إنك رجل!.

آلمني قوله ذلك، فقد أرجعني إلى قول الشريفة حفصة وكأ-

مع أخيها النائب متفقان على رأي واحد ضدي.. وقلت بحنق:

- أنا رجل قبل وصولي إلى القلعة وإلى هنا.

ونهض النائب بكل ثقل جسمه وقد شعرت بأنه يصرفني فخرجت.

....

استدعاني النائب مرةِ أخرى في صباح اليوم التالي وقال:

- كن هنا بمعيتي.. لا تذهب إلى أي مكان آخر.

وتقبلت أمره لكنني قلت:

- وماذا سأعمل؟.

- أشرفْ على مكان المقيل وأَعدّ كل مستلزماته.. الضرورية، فقد أصبحت رجلاً!.

....

كان صاحبي (الدويدار الحالي) قد زاد لونه شحوباً وجسمه هزالاً وأصبح سعاله الحادّ يوقظني من منامي أكثر من مرة في كل ليلة.

كان يسعل حتى يكاد يغمى عليه.. ولا يفيق إلا بعد أن أضمّه إلى صدري ويداي مطبقتان على صدره المتهاوي نتيجة لذلك السعال الحادّ.

....

انقطعت عن منزل الشريفة حفصة.. شعرت بأن ذلك كان أمراً جازماً تلقّيته من النائب.. فقد بلغت الحلم وأصبحت رجلا كما ذكرني النائب بذلك عدة مرات..

حتى القصر نفسه لم أعد أرتاد أماكن النساء فيه ولا حتى المطابخ.. ولم أعد أقوم بأي أعمال خاصة بهن..

لقد اقتصر عملي على مكان مقيل النائب.. أعدّ الماء البارد المبخر وأصلح (المداكي) وأبدل ماء (المدائع) وأعدّ النار (للبواري) في المواقد.. وأقوم أثناء المقيل بوضع النار على التبغ وتقديم خدمات كثيرة في هذا المحيط الضيّق..

كان النائب يغدق عليّ بالقات وهو يشعر بأنني أحس بالمهانة لهذا العمل الأخير الذي أقوم به، فهو ليس عملا يركن به إلى دويدار أو رهينة، وإنما هو عمل خاص بالخدم.. إضافة لشعوره هذا، فقد خصص لي مكانا (أتكئ) فيه في سفل ديوانه الرحب.. وبدأت عادة جديدة معي هي تناول القات..

كنت أجلس في مقيلي هذا بلذة.. وكان يدور حوار شبه مكتوم عن حدث سيقع.. كنت التقط بعض العبارات المتناثرة والتي كانت توحي لي بأن هنالك شيئاً سيحدث.. وكان كلام يدور حول قضية الأحرار والدستور وسيف الإسلام الأمير ولي العهد ووالده الإمام الهرم..

كان النائب أكثر تحفظاً من غيره.. وربما.. لمركزه المرموق ولكون الحديث يجري في مكانه. لكنه، وبعد أن يخرج من كانوا لديه، يستغرق في تفكير عميق حتى أثناء قيامي بتنظيف المكان من بقايا أوراق وعيدان القات التي خلفها المريدون وأخذ (المتافل) النحاسية وأكواب الماء الفخارية.. وطيّ قصيب المدائع

ورمي بقايا رماد (البواري) كان النائب يظل مستغرقاً ومداعته ما زالت قائمة وأمامه جهاز الراديو الكبير ذو البطارية الكبيرة يقلب شوكته على محطات ربما تسعفه بأخبار يرتاح لها.. وقد يستدعي صاحبي الدويدار الحالي المريض لكي ينكبّ على قدميه وفخذيه يفركهما بحسب العادة..

وكم كنت أودّ مساعدة صاحبي في عمله هذا الممل، إشفاقاً منّي عليه، لكنني كنت أمقت ذلك العمل الرخيص.. وكنت أحتقره ولا يمكن أن أتصوّر نفسي أقوم به في أيّ ظرف من الظروف..

وكنت أعود مع صاحبي المنهك إلى الغرفة وأساعده في إصلاح فراشه بعد أن كان يساعدني.. وقد قمت في ليلة بفرك قدميه فصاح بي بعصبية والشرر يتطاير من عينيه.. فامتنعت!.

وذات ليلة عدت من عملي المعتاد المحدود بموجب أمر النائب فوجدت صاحبي قد نام أو أنه تصنّع ذلك وقد أسدل اللحاف على رأسه.. واكتشفت بأن جميع الصور الملصقة بحيطان الغرفة قد مزقت ورميت إلى الأرض وإلى خارج الباب.. فوجئت أيضا بأن أشيائي الخاصة وهي قليلة كالفراش ولحافه والصندوق الخشبي الصغير الملون قد ركن بقرب الباب.. كأنه يريدني أن أخرج من لديه ومن غرفته ومن عالمه.. وأغادر غرفته هذه التي يعتبرها خاصة به..

كان النور المنبعث من الفانوس القديم المتآكل المهمل خافتاً كالعادة.. جلست مثقل النفس برهة.. فكرت في صاحبي هذا

المريض الذي كان في يوم من الأيام دويدارا حاليا.. والذي لا أدري الآن ما الذي حدث معه وعكر صفو علاقتنا الحميمة..

كان بإمكانه أن يكلمني بصراحة بأن أغادر غرفته وأبحث عن مكان آخر، ففي القصر وملحقاته متسع من الغرف التي لا حصر لها.. وهي غرف بالتأكيد أكثر رحابة من غرفته.. وقد خُيِّرت في يوم من الأيام في دار الشريفة حفصة بغرفة مستقلة ذات أربع نوافذ وحمام قريب منها.. ومفروشة أيضا!. لكنني فضلت البقاء معه لحبي له ولشعوري بأنه يبادلني المحبة نفسها..

لا أدري ما الذي طرأ عليه وهو بهذه الحالة من المرض! وقلت لنفسي بعد حوار عنيف بأنّ من غير الوفاء أن أغادر غرفته وهو في هذه الحالة من المرض.. حتى لو كان يريد ذلك!.

بعد فترة اقتربت منه.. كان اللحاف المغطى به يكاد أن يخمد أنفاسه وأنا الذي أعرفه دائما لا يغطي وجهه مهما كان البرد شديداً وقارسا في الشتاء بالذات أو الناموس المزعج في الصيف.

اقتربت ومددت يدي اليمنى لكي أضعها بهدوء وقد احترت أين أضعها على أي مكان من جسمه!. لكنني فضلت أن أناديه أولا ففعلت لكنه لم يجبني.. كنت أسمع زفيره المكتوم وكنت أعرف بأنه ليس نائماً..

مددت يدي إلى كتفه وقلت له:

- ما بك الليلة؟.

لم يجب.. فكررت السؤال وكثفت حركة يدي على كتفه فقال

من تحت اللحاف بصوت مبتور:

- أريد أن أنام.

- وهل أيقظتك؟.

لم يجب بل مال بجسمه نحو الحائط.. وسمعت نشيجاً مكبوتاً صادراً منه..

تمالكت نفسي ثم سحبت جسمه نحوي لكي أعرف ماذا به.. لكنه تمنّع.. فأصررت وانزلقت يدي من على كتفه إلى وجهه أثناء محاولتي تلك.. وهالني تبللها بدموعه المنهمرة على خديه.. فجذبت يدي بسرعة وقد ذهلت تماما.. وكانت ليلة عصيبة.. قلت له:

- أخي الحميم.. صديقي الوفي.. زميلي الوحيد في غرفة الانتظار!.

لم يجب.. لكنني كررت عليه حتى قال:

- دعني وشأني.

- هل آخذ أشيائي وأرحل عن رغبة لك؟.

- أنت حر.

- لم أعد حراً.. منذ عرفت قلعة الرهائن.. وقصر مولاك النائب.. ودار الشريفة حفصة!.

لم يجب.. فكررت عليه السؤال ملحا وقد عزمت على المغادرة إلى أي مكان آخر..

فقال:

- أنت حر.. دعني وشأني.. فأنا مريض.

- مرضك هذا.. هو ما يزعجني!.

- لا تهتم بذلك!.

وصمتنا لحظة قلت له بعدها:

- هل أبحث لي عن مكان آخر الليلة حتى تروق ويعتدل مزاجك.. وتترك هذا التعنّت!؟.

- لم يعد لدي أي ارتياح لتلك الأشكال المقوتة التي ذكرتها..

تمهلت قليلا ولم أجبه بسرعة بل تعمّدت الإبطاء في الردّ وقد تكالبت علي الهواجس.. سألته قائلا:

- أريد أن أعرف قرارك النهائي..

- أنا مريض وأريد أن أرتاح إلى الأبد!.

- أرجوك أن توضح بصراحة.

- .. أرجوك أن تدبّر لك مكاناً آخر.. لا أزعجك فيه بمرضي هذا.

- وهل اشتكيت من ذلك؟.

- ربما تحمّلتني أكثر مما يجب.

- لقد تحمّلتني أنت منذ البداية!.

- هذا كلام عاطفيّ.

- لكنه كلام حقيقيّ وعن صدق.

- أرجوك أن تتركني وشأني.

- وأنت بهذه الحالة؟

- نعم.. سأجد راحة كبرى اذا تركت وحيداً في هذه الغرفة.

- لم يعد هنالك من يزعجنا من النسوة بعد الآن!.

- هذا كلام!. اقتنعت به أنت والنائب.. وهو الكلام نفسه

الذي اقتنعت به أنا والنائب منذ سنوات.. لكننا مارسنا الأشياء رغم ذلك وحتى الآن.. أولم تلاحظ ذلك؟!.

- لم ألاحظ!.

- أنا أكبر منك سناً!

- لا أدري.

- نعم أكبر منك سناً.. وعندما بلغت الحلم.. سن الشباب حاولت التخلُّص.. لكنني مع الأسف ورغما عني ظللت وعملت وتصرفت حتى الآن كطفل أهبل.

لم يعد هنالك مجال للجدل معه.. أخذت أشيائي وخرجت إلى الساحة.. وفكرت قليلا أين أذهب في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

واتجهت تلقائياً إلى نوبة (البورزان).. كان ساهراً خارج نوبته مطلاً على السور الكبير يصفر بشفتيه ألحان بلادي الشعبية الخاصة بأيام الحصاد..

استقبلني بشوق وترحاب كأنه يستقبل صديقاً حميماً له.. ولا أدري كيف اتجهت إلى مكانه مع العلم بأن الجميع يتحدّثون عن سلوكه الانطوائي وعدم قبوله لأيّ شخص مهما كانت أهميته.

فرش لي مكاناً ممتازاً من غرفة النوبة الدائرية.. ولأنه صاحب مزاج متقيّد بالنظام والنظافة ودقة التطبيق في ترتيب ذلك المكان فقد صنعت من مكاني الخاص بي داخل النوبة المستديرة والتي خصّصها لي مكاناً أرقى من مكانه الخاص به.

حدثني ذات ليلة وأنا مشغولٌ بحال صاحبي الدويدار عن سيرة

حياته وما مرّ بها.. قال لي:

- ألم تسمع عن حرب (الانسحاب)؟.

- سمعت بها.. من والدي الذي يشارك فيها وكان صبياً مع جدي الذي كان يركب الفرس دائماً.

- هجموا علينا في أطراف تهامة (الشامية) ببنادقهم (المضلع) الألمانية الصنع.. كانوا (وهابيين) و (سعايده).. وكما نحن يمانيون.. (متوكليون) و (زيود) نحمل البنادق (الصابة) و (الموزر) و(السك الفرنسية).. مع ذخائرنا (المعوضة).

كان والدي يقص علينا تلك الأحداث وبتفاصيلها الدقيقة.. قال صديقي البورزان:

- انهزمنا من تهامة.. وزُجّ بنا في قارب شارد صغير متّجه إلى عدن حيث عدنا بعد الصلح..

واصل حديثه وهو يستعيد أمجاده:

- كنت أضرب على هذا البورزان بعد أن أتقنت الأداء عليه من معلّمنا التركي العجوز الذي بقي مع من بقي من الأتراك بعد هزيمتهم..

- شيء رائع..

- يبدو أنك سارح الذهن!. فيم تفكر؟

أربكني سؤاله المفاجئ فقلت:

- أبداً!. أنا معك.

- لست معي.. هنالك شيء يشغل بالك!؟.

- ربما!. وأرجو المعذرة.

- هل هي الشريفة حفصة؟

- ذكرتني بها الآن.

- إذن ما هو الذي يشغل بالك ويجعلك مذهولا هكذا؟.

- صاحبي الدويدار.

- الحالي؟.

- نعم.

- مسكين!. فهو صاحب قلب طيب لكنه ساذج!.

- مريض.. وقد اشتدّ به المرض إلى درجة خطيرة.

- .. إنني متألم فعلا من أجله.. ولكنه لم يكن وفياً عندما طردك من غرفته!.

- معذور.. وكان الواجب أن أبقى بجواره.. وبالذات في حالته هذه.

- أتريد أن نزوره ونطمئن عليه؟.

- هذا ما كنت أودّ طرحه عليك ولكنني ترددت مخافة إحراجك.

....

زرت مع صديقي البورزان صاحبي الدويدار الحالي المريض في غرفته الصغيرة.. كان راقداً.. يبدو أنه لم يخرج منذ غادرته.. كان الطعام أمامه كما هو.. لم يذق منه شيئاً.. وكانت رائحة الغرفة عطنة ففتحت النافذة الصغيرة التي كنت آنس إلى بصيص نورها في أحلك الليالي..

استيقظ وقد شعر بنا.. لم يتكلم.. شعرت أنه قد أصبح غير قادر حتى على الكلام..

وخرجت مع البورزان من الغرفة وعندي اقتناع بالعودة اليه.. فأخذت أشيائي من مكان صديقي البورزان وعدت إلى غرفة صاحبي الدويدار المريض..

رتّبت مكاني كالعادة السابقة.. ولا أدري كيف توفرت لدي طاقة هائلة من التحمّل والصبر والجلد!.

تجاذبت معه أطراف حديث فانفرجت أساريره.. وتكلم وكأن شيئاً لم يحدث.. واستطعت إرغامه على أكل شيء من الطعام المرصوص أمامه وفركت قدميه الباردتين وأصلحت مرقده.. وقدته إلى الحمام لكي يقضي حاجته الحبيسة طيلة غيابي..

حتى عيناه بعد ذلك كانتا تبرقان بالحيوية والنشاط.. كان سعيداً بعودتي وكأن الحياة قد عادت اليه رغم مظهره الكبريائي الذي حاول الحفاظ عليه..

مع كل ذلك.. ما زالت صورة الشريفة حفصة لا تفارقني لحظة حتى في انعزالي مع خيالي واحلامي. كان صوتها المبحوح يرنّ في أذني.. يناديني بأن أكون رجلا..

كان وقع الحجر المقذوف منها على ظهري قد أعاد إليّ الآلام وخصوصا أنه استقر في عمودي الفقري..

كان صوت بكائها الذي تخيّلته وهي تدافع عني عند أخيها النائب يذكي لديّ شعلة من هيجان الحب القاسي.

....

لكنني مع كل ذلك أوليت صاحبي كل اهتمامي وجهدي برغم عملي المضني في ديوان مقيل النائب بعد الظهر والمساء. أصبحت مقايل النائب قلقة.. كأن كل من يرتادها يتوقعون دائما حدوث

شيء. وسعال صاحبي الدويدار المريض يزداد ليلة إثر أخرى برغم مكوثه في فراشه.. وصوت صديقي البورزان أحد أبطال هزيمة (الانسحاب) يعلو بنشيده المنادي للهجوم على الخصوم وباشارة النصر الذي لم يحدث!.

والطبشي العجوز الذي حفرت البغلة (زعفرانه) في رأسه ثقباً لا يندمل ما زال يدندن بألحان (الباله) الشعبية!.

وأنا!. وأنا أتذكر (زامل) العساكر اللاصق في مخيلتي..

يا دويدار.. قد أمك فاقدة لك..

دمعها كالمطر..!.

تذكرت أمي التي هربت بي من (عكفة) و (سواري) سيف الإسلام الأمير ولي العهد بين مزارع القصب والذرة خوفاً من خطفي في تلك الأثناء لأسجن كرهينة.. ومع ذلك فقد انتزعت من حضنها بقوة وقسوة لم تعهدها المسكينة من قبل.. وأُركبت فوق حصان مقوس الظهر يخص والدي وأسرته إلى المدينة.

....

ذات يوم.. لا أدري كيف قابلتها صدفة.!. ارتعت وعرتني رعشة كأني مصاب بحمّى عنيفة!. وتصبب العرق من جبيني مدرارا.. ونشف ريقي!.

حاولت الهروب بحركة متزنة.. لكنها قالت:

- سبحان الله!. ظننت أنك قد سافرت!.

- كنت أنوي ذلك.

- إلى أين؟

- إلى بلادي.

- عجيب.. وأنا التي أعرف أنه لا يسمح لرهينة بالسفر إلى أهله إلا بعد أن يحضر بديلا عنه!.

ولم أجب فقالت:

- وأنت رهينة مهم!. ودويدار خاص بي قبل أن يستولي عليك النائب!

- أمرني بالبقاء في معيّته.

- وقال لك بأنك قد أصبحت رجلا.. وقد بلغت الحلم!.

- لقد قلته أنت من قبل!.

- ولقنّك أن تقول هذا؟

ولم أجب.. فقالت:

- وتطوّرت من دويدار حالي إلى خدام مطيع!. تقوم بغسل (المتافل) واصلاح (المدائع) وكنس المكان!. وربما تقوم بأداء أعمال أخرى!.

لم أجب أيضاً.. فقالت:

- أهذا ما تعتبره تطوراً في حياتك؟.

شعرت بثقل سخريتها فاندفعت نحو البوابة الرئيسية للقصر وقد مزق أحشائي كلامها الجارح.. واحتميت منها- كأنني أعتقد بأنها تطاردني- بجوار صديقي البورزان.. وأنا في حالة من تشنّج مكبوت طرأت علي وكنت أخاف أن تنفجر في رحاب صديقي البورزان الحنون الذي أمسك بكتفي وهزني بعنف قائلا:

- ماذا بك.. يا أهبل؟!.

لم أجبه.. فأخذني بقوة لأواجهه مباشرة وقال:

- ابن أمك!.

تذكرت أمي.. وزامل العساكر.. (يا دويدار قد أمك فاقدة لك.. دمعها كالمطر).. تمالكت أعصابي وأصلحت من وضعي فقال:

- هل جرى شيء لصاحبك؟.

- .. لا..

- اذن ما بك؟.

- لا شيء

- تقول لا شيء!. وأنت تبكي كطفل مدلل؟.

- لم أبك.. متى بكيت؟.

- قسما بالله إن لم تقل ما بك!....

ولم يكمل ولم أجب.. ففكر لحظة ثم قال:

- أهي الشريفة حفصة مرة أخرى؟!.

هززت رأسي.. فقال متأنّياً:

- مسكين يا صديقي الرهينة!. فإما أن تموت بحبها أو ترحل به خارجا!

- سأرحل.

- ماذا فعلت يا مسكين!؟.

- لا شيء.

- ماذا قالت لك؟.

- كلام.. مجرد كلام.

- كلام قاسٍ؟.

- هززت رأسي.
- .. وبأنك أصبحت خادما للنائب؟
هززت رأسي.
- وبأنك أهبل وجبان ولن تكون رجلا مطلقا؟
لم أجبه فقال بلطف حنون:
- هل تحبّها حقا؟!.
وتمهلت قليل.. فقال:
- كارثة ومصيبة حلّت بك!.
أجبته وقد واتتني الشجاعة قائلا:
- وهل الحب كارثة ومصيبة؟.
- نعم.. كارثة ومصيبة.. وخصوصاً اذا كان متبادلا مع الشريفة حفصة!!.

....

لم أنم جيداً بجوار صاحبي الدويدار المريض الذي أصلحت له كل ما يحتاجه..

ولأنني شربت لكي أنسى الشريفة حفصة.. فقد سهرت حتى الصباح.. لم تفارقني لحظة في خيالي.. كيف تكون في هذه الساعة؟. هل هي مستلقية على فراشها الناعم والأنوثة المجسّدة في جسمها الريان تبرز مفاتنه من خلال ثيابها الشفافة اللاصقة بجسمها!؟. وصوتها الأجش كفحيح أفعى تتلوى يطرق سمعي!.

ما زلت أتغافل هجوع صاحبي من سعاله الحاد وأرتشف كأسا إثر أخرى من احتياطه من الخمرة وسيجارة من سجائره المعروفة!.

أصبحت في عالم آخر!. قررت فيه بغير إرادة الذهاب إلى منزل الشريفة حفصة..

وارتشفت كأساً أخرى.. وخرجت فعلاً إلى الساحة متجهاً نحو باب دارها.. طرقته ففتحت لي إحدى الخادمات، ولأنها عرفتني فقد دخلت وصعدت الدرجات نحو مكان الشريفة حفصة..

وقفت برهة متردداً ماذا أقول لها في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟.

كانت قد شعرت بطارق يدّق باب دارها فتأهّبت لتعرف من هو الطارق في مثل هذه الساعة المتأخرة..

عدت أدراجي مسرعاً لكني فوجئت بصوتها المعروف وهي تسأل خادمتها عن هوية الطارق وقد أجابتها الخادمة بأنه الرهينة.

ولم أشعر إلا بأنفاسها تلثم رقبتي وهي تقول:

- خطوة عزيزة.. يا خادم مولانا النائب!؟.

ولم أجبها وقد ندمت لمغامرتي هذه السخيفة.. فقالت وقد وقفت أمام وجهي مباشرة:

- ماذا يريد جناب خادم مولاي النائب مني؟

- لا شيء.

كان لا بد أن أنطق بأي كلمة.. فقالت بتعجب مفتعل:

- لا شيء!؟.

- نعم.

- وتعليل وجودك الآن في منزلي؟.

- كنت أبحث عن شيء تركته هنا.. وربما كنت مخطئاً في

ظني.. فهو في مكان آخر..

- عجيب.. وهل هو شيء هام لديك!؟.

- كان مهماً قبل الآن.

- عجيب.. إذا لم يكن مهما.. كنت ستنتظر إلى الصباح وتبحث عنه مع الخادمات.

- أرجو المعذرة سيدتي لإزعاجك.. وعلى كل حال لم يحدث شيء يعكر صفو نومك.

- مؤدب.. مؤدب جداً.. لكن الذي تبحث عنه ألا يكون مع إحدى خادماتي؟

- لا.

- هل تروقك إحداهن؟.

ووثبت غاضباً لكي أخرج سريعاً.. لكنها أمسكت بكتفي وجذبتني نحوها فالتصق جسمي بجسمها وشعرت بأنفاسها تتوالى لاهثة.. وقبلتني حتى كدت أن يغمى علي.. ومرقت أمامي وقد جذبتني بيدها نحو مكانها المفضّل..

وأقفلت الباب ووضعت يدها حول عنقي لكي تذيبني في قبلة أخرى أصبحت بعدها كمعدن مصهور في أتون صائغ أو حداد.

ورشفت من فمها أجمل القبل وتلمّست يداي جسمها الرخو الذي كنت أحلم به منذ زمان.. وهجعت معها في لذة.. صاحت لها ديوك الفجر...

......

نهضت من منامي فزعا وصديقي المريض يصيح بي متسائلا عما

جرى لي.. وكيف حالي.. اتجهت إلى النافذة الصغيرة لكي أرى أي بصيص من نور.. كان ضوء الفجر قد انتشر فقال:

- ماذا بك.. هل أنت مريض؟.

- لا، أبداً.. كيف حالك أنت؟

- أنا كالعادة.. لكنني قلقت عليك!.

- هل حدث لي شيء؟.

- كنت في حالة سيئة!.

كنت في الأيام الأخيرة أستيقظ متأخراً لأن عملي كان قد تحدّد بعد ظهر كل يوم في مقيل النائب وحتى منتصف الليل..

وكان صاحبي الدويدار الحالي قد تدهورت صحته إلى درجة أصبح فيها عبارة عن هيكل عظمي.. وما بقي من جلده فهو شاحب أصفر اللون.. وكان من النادر خروجه من غرفته.. وكنت أقوم بتقديم جميع وجباته التي لا يمسّ منها إلا القليل النادر تحت إلحاحي الشديد.. كان يبدو كئيباً متألماً.. زاد من ذلك شعوره بعدم الرضا لعدم اهتمام سكان القصر بزيارته. قال لي ذات يوم:

- لم يزرني أحد!.

أجبته معتذراً:

- كلهم مشغولون.. وحالتك ليست سيئة.

وخرجت منه نهدة ثم صمت فقلت:

- ومع ذلك فقد زارك الكثيرون في الأيام الخطرة من مرضك.. لم تعد تتذكر ذلك.

تقيّدت بقرار النائب بأن أكون بمعيته دائما.. أعدّ له المفرج للمقيل.. وقد امتنعت عن زيارة الأماكن التي يتواجد فيها عادة نساء قصره..

كم يغمرني الحنين كلما تكورت بجوار تلك النافذة الصغيرة المنفية.. وتهتز عصفورة صغيرة رمادية اللون فوق مزراب النافذة تذكرني بأنك الملجأ والملاذ البارد الحنون:

- منذ فترة لم يعد يطرق أذني ذلك الرنين الساحر المبحوح الصادر منك.. كم هو رائع!.. في بلادي التي حكيت لك عنها العجاب.. استضعفوني.. واعتدوا علي.. ومسخوني رهينة ودويداراً في بلاطك وخادماً في ديوان مقيل أخيك النائب المحترم.. ومع ذلك لكأن صوتك الرنان ينزلق برفق فيحول الصدى القاسي إلى موسيقى ذات نغم (حالي)...

....

أدرت الاسطوانة في (صندوق الطرب) المصنوع من خشب الأبنوس والذي لا يستخدم إلا بتستر ملحوظ.. ليصدح ببعض أغاني المطربين اليمنيين أمثال (العنتري) و (الماس) و(القطبي)، فعلت ذلك أثناء قيامي بترتيب مكان (مقيل) النائب.

كنت أضحك على نفسي حين أقف مشدوهاً بذلك الغناء المنبعث من ذلك الصندوق الخشبي المركب عليه اسطوانة فحمية اللون تشبه قرصاً يصدح منها صوت المغني مع عزف العود المميز.

كم كان يذهب بخيالي آسراً هذا الإبداع.. ليس في الغناء والأداء ولكن طريقة التوصيل!. صندوق الطرب الخشبي والاسطوانة الفحمية!.

كنت أعد ذلك معجزة!. وأنا لا أسمع إلا صوت بقرتنا الغالية في سفل الدار تطلب الغذاء بصعوبة بالغة!.

عندما أكمل عملي في (ديوان) النائب أقفل ذلك الصندوق لأنني سأسمعه في نهاية (المقيل) وقد أسمع غناء وعزفاً على العود بل ورقصاً مصاحباً له من أشخاص يجيدون ذلك.. وما أكثرهم!.

كم يغمرني الحنين كلما تكورت بجانب النافذة الصغيرة المنفية في غرفة صاحبي ـ الدويدار (الحالي).. المريض:

- وقد تهدل يمامة أو يزقزق عصفور ليذكرني بأنك الملجأ والملاذ البارد الحنون.. ايه.. شريفتي الحبيبة ذات الصوت المبحوح.. منذ فترة لم يطرق أذني ذلك الرنين الصادر منك؟.. كم هو رائع.. في بلادي التي حكيت لك عنها العجاب!. استضعفوني.. واعتدوا علي.. ومسخوني رهينة.. ودويدارا في بلاطك.. لكأن صوتك الرنان ينزلق في رفق.. يحول الصدى إلى موسيقى ذات ايقاع حالم و(حالى)!.

....

كم تاقت نفسي لرؤية الشريفة حفصة ولو عن بعد.. كنت أختلس من الوقت بعض لحظات لكي أقف وعن بعد من باب دارها عسى أن أشاهدها تخرج.. أو أقف أتطلع إلى نوافذ غرفتها عسى أيضا أن ألمح ولو مجرّد طيف لجسمها!.

وكنت أتردّد على الأماكن التي ربما تكون متواجدة فيها عادة، حذراً.. وأتصنع أعذاراً واهية اذا سئلت عن سبب تواجدي في تلك الأماكن..

كدت يوماً أن أغامر بزيارة لمنزل الشاعر الوسيم وهو الأبعد مسافة عن المدينة وأكثرها أخطاراً لأي مغامرة.. عسى أن أجدها.. داخلة لديه أو خارجة من لديه.. لكنني فشلت.

....

لم أعرف في حياتي أنني مارست طقوس الصلاة باختيار حر إلا منذ عرفت الشريفة حفصة وأحببتها..

كان المسجد صغيراً بجوار البوابة.. تعلوه قبة بيضاء من القضاض والنورة.. كان مسجداً قديماً جداً.. أعدّ كضريح لأحد الأولياء القدماء المعتقدين ببركاتهم.

وكان يشرف على إقامته صاحبنا الطبشي العجوز التي فدغت رأسه البغلة (الزعفرانة)!.

ولقرب المسجد من دار النائب فقد تكلّف شخصياً وعلى نفقته الخاصة بإسراجه ليلاً بالمصباح الزيتي الذي يتصاعد دخانه صدئاً ليخفي سقف المسجد البيضاوي اللون.

وقد اعتمد النائب لذلك (الطبشي) العجوز الذي فدغت البغلة (الزعفرانة) رأسه (قدحاً) من الحبوب كل شهر مقابل إقامته للمسجد.

كنت أُتهجّد فيه بعشرات الركعات عندما تتاح لي الفرصة في أي موقت صلاة.. كنت أصلي سائلا الله ان يشفيني من حب الشريفة حفصة.. وأن يلهم قلبي النسيان لها.

وكم كنت أطيل السجود بخشوع.. وأخرج من المسجد بعد ذلك وعندي أمل في إجابة الله لدعائي الصادق الخالص..

كنت أخجل معظم الأحيان من تصرفي هذا.. ومع ذلك فكل عملي هذا مرّ دون جدوى.. فما أن أدخل راجعاً من بوابة القصر حتى أنظر رغماً عني إلى دارها.. بل وأجلس أمامه لحظات عسى أن أرى طيفها!.

....

تركت الصلاة فلم تبلغني مأربي.. وعدت كما كنت أحاول أن أجرب أي طريقة أخرى أنساها بها.. يا إلّهي ألم تخلق سواها؟.

كنت أكب على عملي في مقيل النائب بجهد زائد.. وأعتني بصاحبي المريض معظم الوقت وأجلس مع البوررزان أسمع منه حكاياته عن حرب (الانسحاب) التي هزم فيها.. وأنصت لزامل العسكر المعتاد.. ومع كل ذلك لم أستطع نسيانها!.

كنت أتذكر تعبيرها لي بأنني تحولت من دويدار إلى خادم.. أغسل (المتافل) وألقط الجمر (للمدائع) وأكنس مكان المقيل في وقت متأخر من الليل..

....

عدت إلى غرفة صاحبي ذات ليلة متأخراً.. ارتميت بجوار النافذة الصغيرة.. ينهشني الغم والكدر والضيق.. الضيق الحقيقي من الحياة.

وسمعت سعاله مصحوباً بأنين جديد.. تفقّدته.. كان هامداً سوى حركات متباطئة من رأسه.. جسمه بارد ولونه شاحب..

....

قال الطبيب الأجنبي الوحيد في المدينة وربما في البلاد كلها بعربيته المكسرة:

- ما فيش خوف.. واحد حبة بعد أكل.. انشاء الله تمام.. بعدين.. تأتي مرة يجي عندي.. لازم أشوفه!.

لململت صاحبي من أمام الطبيب الذي هرع مسرعاً يتفقد أرانبه في سفل الدار. ذكرتني رائحة مخلفات الأرانب بداري في القرية.. تنشقت بشوق تلك الرائحة فهي شبيهة برائحة ثورنا وبقرتنا وغنمنا!.

حاولت مداعبة صاحبي بترديد كلام الطبيب المكسر عربياً فابتسم مجاملا لي فقط..

كانت حالته سيئة ومن يوم إلى يوم تسوء أكثر.. وحبة العلاج التي قررها الطبيب لم تُجد نفعا.

....

أعدته إلى الطبيب عدة مرات فسمعت الكلام المكسر نفسه وحبة العلاج نفسها التي لا يملك سواها دواء للمريض.

حاولت ذات صباح أن أشدو وأنا منفرد بأغنية من قريتي فلم أستطع.. وحاولت أيضاً أن أصفر بفمي بلحنها فتعثّرت...

لا أدري ما الذي جعلني أفقد حتى مجرد الإحساس بالسعادة لأستقبل يوماً جديداً آخر!.

....

كان مقيل اليوم متوتراً.. فالنائب ظل خارجاً داخلاً وحالته ليست مستقرة.. بل وحالة الضيوف المعتادين في المقيل أيضاً!.

أدركت بأن هنالك شيئاً.. ربما حدث.. أو هو في طريقه للحدوث.. قد أزعج الجميع!.

قال أحد المقرّبين للنائب وقد تأكد من معرفته التامة لوجوه الموجودين:

- ما الذي حدث في صنعاء؟.

- قتل الإمام..

- ومن قتله؟!.

- حزب الأحرار.. الدستوريين.

واستمرت فترة صمت:

- هل غادر (السيف) المدينة؟.

- نعم.

- وكيف غادرها؟.

- لا أعلم.

- ألم يترك لك خبراً؟

- لا يثق بأحد!

ذهلت لهذا الحوار المتبادل بين النائب وقريبه والذي اتسع مجاله بين المجموعة.

وغادر الضيوف مقيلهم مبكرين على غير عادتهم.. واختفى النائب في أحشاء قصره وملحقاته.. وعدت مبكراً إلى صاحبي حيث أخبرته بهذه الأحداث.. فوثب من مرقده فجأة وهو يسألني:

- هل قتل الإمام؟.

- هذا ما سمعته.

وارتمى على ظهره وصوته يخفت:

- هل أنت متأكد من ذلك؟.

- هذا ما سمعته.

ونهض مرة أخرى:

- ولي العهد.. السيف.. أين هو؟.

- غادر المدينة.

وارتمى مرة أخرى على ظهره قائلا كمن يخاطب نفسه:

- لقد فشلوا.. كان عليهم بسيف الإسلام قبل الإمام..

- ماذا قلت؟!.

- لا شيء

- هل أنت بخير؟.

- كنت.

....

أهذا الدويدار.. صاحبي.. أكثر إدراكاً للأوضاع مني.. وهو المريض.. الآن.. وربما على فراش الموت!؟.

عجبت... ولمت نفسي.. وأنا صاحب قضية ويهمني الأمر أكثر منه!.

أرتميت على الفراش في مكاني المعتاد.. والهواجس تتكالب علي.. فقد قُتل الإمام الهرم في صنعاء.. وسيفه ولي عهده قد فرّ من المدينة...

وأسرتي؟!. بعضها مشرّد والآخرون في السجون أو المهجر.. وأنا رهينة.. ودويدار.. وخدام مؤخراً.. لأن والدي يعارض سياسة الإمام وسيوفه.

لقد قتل الإمام وهذا هو المهم.. وبأيدٍ يمانية. وهذا هو الأهم.... أكيد ذلك.. وأكيد ما حدث.

وفرّ ولي العهد السيف المسلط على رقابنا.. خيبة أمل وغمّ وخذلان.. ولكن لا يهم!.

....

في سجل تاريخ شعبنا اليماني- أنه قادر على تنفيذ كل رغبة تجتاح مشاعره وهو ينفذها بالفعل ولو بطريقة عشوائية.. ربما يقال إنها ليست ميزة.. ولكنني أؤكد أنها ميزة.. فباستطاعته إنهاء الظالم ولو بصبر الجمال وحقدها!.

....

هيأت مكان المقيل مبكراً مما استغرب له النائب!. ولم اظهر له أي شيء عن مشاعري لما حدث.. ولا هو سأل أو تكلم عن ذلك!. لئيم بطبعه!. وخبيث!. وكنت قد اكتشفت من خلال ممارستي للعمل معه أنه يظهر للآخرين غير ما يبطن.. تعلمت ذلك منه وطبقته في معاملتي معه بالرغم من استهجاني لهذا الأسلوب.

....

ونشطت لكي أسمع جديداً في الأمر.. لكنهم بخلوا هذا اليوم بأن يتفوّهوا بأي حديث مهم.. فكان مقيلاً صامتاً توجّست من خلاله مخاوف وذعراً وقلقاً..

لا بد أن شيئاً قد حدث؟. هذا ما أستنتجته.. وجوه القوم تعكس القلق نفسه الذي أعيشه!.

....

بكرت على غير عادتي.. وتجوّلت في أرجاء القصر وملحقاته ما شاء لي التجوال.. حتى دار الشريفة حفصة.. مررت بها..

يا ترى هل هي مهتمة بهذه الأحداث.. أم كل همّها هو نفسها.. والشاعر.. وربما أنا؟!.

....

توافد على قصر النائب مواطنو منطقته المحيطة بالمدينة معظمهم من رعاياه وشركائه في الأراضي وقلة من الأنصار.. بعضهم ببنادق يحملونها على أكتافهم بملل والبعض الآخر بعصي وفؤوس يتوكأون بها.. وكانوا (يزملون) أمام بوابة القصر:

يا شجرة يا مورقة يا محدقة..

..يسقيك ربي بالمطر!.

أشكال وألوان من البشر غير منسقة ولا منتظمة، وأفواه تنعق بكلام ليس في محله امتعض له النائب وهو الذي كان قد أرسل لهم الرسل (القاصدة) لكي يحضروا ويشرفوه في مثل هذه الأحداث والأزمات.. وهذه المواقف التي يجب فيها الحزم والصرامة وإظهار القوة بكثرة الأتباع النافعين..

ومع ذلك فقد مرّت الأمور كما يهوى.. فكان تعليل الناس هو بأن النائب سيحسم الأمور لصالحه.. أو لصالح السيف ولي العهد.. أو لصالح الأحرار.. وقد استغل النائب هذه التآويل المتنوعة وتركها تسري وتشيع.. وارتاح لها كثيراً!.

....

قلت لصاحبي المريض كل ذلك فقال:

- النائب؟. ملكي أكثر من الملك!.

- كم أنا غبي!

- أنت طفل!.

- وصفوني قبلك بهذه الصفة!.

- أتقصد الشريفة حفصة!.

- والبورزان أيضاً!.

وسعل فجأة سعالا حاداً لم يهدأ منه إلا عندما ضممته إلى صدري.. فقال بصوت خافت:

- البورزان؟! ليس لديه سوى قصة (حرب الانسحاب) التي هزم فيها.. وهي حكاية كبيضة الديك!.

كانت إجابة بعيدة عن القصد وربما تعمّد صاحبي المريض ذلك!. لكنني قلت:

- لم أقصد ما طرق ذهنك من وهم!.

- على كل حال.. ستعرف ذلك مستقبلا!

لم أحاول الإجابة عليه بأن البورزان قد قال لي ذلك من قبل.. وشعرت بحرجه فرقدنا هامدين مع بصيص من نور من كوة النافذة الصغيرة، وسعاله الحاد يقلقني ولا يهدأ إلا بعد أن أضمّه إلى صدري كي يستردّ نَفَسَه..

....

منذ فترة لم يطرق أذني ذلك الرنين الساحر الصادر عنها.. كم هو رائع!. في بلادي التي حكيت لها عنها العجاب.. استضعفوني واعتدوا على أسرتي.. وصادروا كل شيء.. مسخوني إلى رهينة ودويدار ثم خادم.. في بلاطها وبلاط أخيها النائب!.

لكأن صوتها الرنان ينزلق الآن في رفق ويحول الصدى إلى موسيقى ذات أنغام حالمة!.

......

اعترضت طريقي في فناء القصر بجوار الفسقية. كنت خارجاً لتوي من مكان مقيل النائب بعد أن قمت بإعداده حسب العادة بعد رحيل آخر مقيل فيه..

قالت بدلال:

- هيه!. يا سبحان الله!.. كأننا لا نعرف بعضنا!.

أخفيت ارتباكي ولم أجبها.. لكنها اقتربت مني.. وأمسكت بذراعي قائلة:

- أوبه (خذ بالك)!. أنا الشريفة حفصة!.

- لم أنكر ذلك!.

- وأنت رهينة!.

- .. ودويدار.

- .. «حالي»!.

- وماذا؟.

- وخادم سيدي النائب!. الذي يقوم.....

- بغسل الأواني القذرة.. و و و.!.

- أو تنكر ذلك؟.

- معاذ الله!.

- حسبت أنك ستنكر!

لا أدري كيف واتتني الشجاعة لكي أقف أمامها في ثبات تام واعتزاز بالنفس لم أعهدهما من قبل مما جعلني أتخطاها ماشياً إلى الإمام.. نحو بوابة القصر... فقالت:

- إلى أين أنت ذاهب؟.

- لديّ عمل.

- هكذا!.

- ماذا تريدين؟.

- أن أراك!.

- بهذه البساطة!.

وكشرت كعهدها دائما.. وبصوتها المبحوح المحبّب إلى نفسي قالت:

- وتتركني لوحدي!؟.

ونظرت حولي متصنعاً الاهتمام.. كأنني وإياها في غابة موحشة وهي تخاف الوحوش الكاسرة!.

وقلت:

- أنت في دارك!.

- نعم؟.

صمت قليلا.. كنت أعرف أنها أقوى مني في مجال السخرية بالآخرين فحاولت استثارتها:

- .. لا يهمك إلا ذاتك الخاصة.

- ومن أحبّ.

- كلام!.

- هل تنكر ذلك؟.

- نعم.

- وتقول هذا بإصرار صارم؟.

لم أجبها.. فتمالكت أعصابها وأخذت بيدي بعنف إلى ركن في

الساحة ثم أجلستني بجوارها فجلست وقالت بصوت لم أعهده فيها من قبل.. صوت مشوب بالخذلان والانهزام:

- أريدك أن تنقذني.

لا أدري كيف صدمني سؤالها الحزين الجادّ والذي هوت به على مسامعي.. كان صوتا ينم عن حالة ضعف لم أعهده فيها من قبل.

قلت ملاطفا:

- ومن ينقذني أنا أولا.. وينقذ هذا البلد... أيضا!

- أنا ربة ابلي وللبيت ربٌ يحميه.

- لم أفهم!

- هه!.

- نعم؟

- ألم تقرأ حتى كتب التاريخ؟

- كتب التاريخ؟. لم أقرأ صفحة واحدة!. كان والدي يقرأ هذه الكتب دائما!.

ضحكت.. وقد كادت من قبل أن تذرف الدموع الغزيرة ثم ضمتني إلى صدرها مرحة.. فاستسلمت برأسي بين نهديها الناضجين بالأنوثة والمحبة والشهوة.

ازاحتني برفق قائلة:

- هل تنقذني مما أنا فيه؟.

وابتسمت مرة أخرى.. وقد هالني طلبها المفاجئ.. وبعد أن تريّثت ممعناً في طلبها هذا.. أجبت بعد قليل:

- ممَّ أنقذك؟!.

- من حياتي هذه.

كان ردّها واضحاً وسريعاً فقلت متفلسفا بحِكَم الريف:

- من هو في الوادي.. يقول ليتني في الجبل!. ومن هو في الجبل يقول ليتني في الوادي!.

- حِكَم ريفية. هبلأ!.

- حكم مأثورة وصحيحة.

صمتت برهة أتاحت لي فرصة للتأمل والتبصر فقالت:

- أنا وأنت في مكان واحد.. حسبته أنت جبلاً أو وادياً.

- فرق كبير بيني وبينك، كالفرق بين الجبل والوادي!.

- أنا أخت النائب!. وأنت دويدار!. رهينة!. و.. و و؟!.

- هذه نقطة!.

- والأخرى؟.

- لا داعي للاسترسال في حديث لا فائدة منه!.

وثبت غاضبة واتجهت نحو دارها.

توهّجت المدينة والقرى المحيطة بها في الجبال والسهول بأضواء هائلة على أسطح المنازل تدلّ على وقوع حدث هام..

....

انتصر الإمام الجديد.. السيف.. الأمير.. ولي العهد.. السابق.. على الدستوريين.. الأحرار.. الثورويين..

....

وعلت دار النائب وملحقاته برغم تخمينات العامة غير الموفقه- مشاعل النصر المعجونة من رماد وقاز..

كنت قد رفضت بشدة أن أعجن الرماد بالقاز وأشعله رمزاً لانتصار الإمام الجديد.. ولكن غيري من المتطوعين قاموا بالمهمة.

....

وهمدت متألماً بجوار صاحبي المريض.. كان يئنّ بفحيح مؤلم!.

توجّهت نحو النافذة الصغيرة وأضواء المشاعل تتلألأ من على سطح كل منزل وتغمر غرفتنا ذات الكوة الصغيرة بالنور المقلق الأصفر الباهت..

عاد السيف.. الإمام الجديد.. وقد انتصر.. لا بد أن والدي أحد ضحاياه.. والذين بترت أعناقهم في مدينة (حجه).. وقد عاد السيف ولي العهد الإمام الجديد بعد ذلك منتصراً بعد أن أباح (صنعاء) للنهب والسلب والقتل والدمار..

....

رقد صاحبي الدويدار الحالي.. ورقدت معه رقدته الأخيرة!. ميتاً كان.. وهامداً.. بارد الجسم.. وبشكل أوحشني!.

كنت قد تمالكت أعصابي فلم أنهر لموته.. كنت من قبل أتوقع أن أصاب بالجنون اذا ما مات صاحبي.. لكني تقبلت الأمر الواقع بانفعالات صامتة وهادئة.

احتضنته.. وغسلته بنفسي وهو عار شبه هيكل عظمي بجلده الباهت اللون الذي تبرز كل نتوءات العظام من خلاله. وكفنته بكفن أبيض شراه البورزان.. وعطرته بروائح تطوعّت بها الشريفة حفصة وكم كانت ثمينة لديها وتحتفظ بها لمناسبات أخرى.. بين طيات كفنه (مشاقر) من الريحان والزهور الشذية..

يحثت عن البورزان عسى أن يفتح عينيّ لينهمر منها الدمع..

لكنه كان مكروباً.. فارّاً مع عقدته هزيمة (الانسحاب)!. وربما زاده فشل هذه الأحداث انهزاما فهرب!.

كم كنت أود أن يكون موجوداً، وخصوصا أنه شارك بشراء الكفن- ليشاركني متاعبي وهمومي أو يفرج عنها قليلا بقصصه عن حرب الانسحاب!.

أما الشريفة حفصة.. والتي ترددت كثيراً لأرتمي بهمومي بين أحضانها.. فقد شاركت بالحضور وعلاها الحزن وهي تشمّ عطوراتها الخاصة الثمينة تفوح من نعش الفقيد.. حضر أيضا الطبشي العجوز المفدوغ الرأس..

كنا هؤلاء فقط أهم الشخصيات في جنازة الفقيد الراحل.. ومعظم نساء القصر وملحقاته ممن عشن معه في مغامراتهن يتفرجن من بعيد!.

جنازة صغيرة سارت بنعش صاحبي الخشي المحمول على الأكتاف إلى مقبرة المدينة المزدوجة بجنائز كثيرة.. مصحوبة بأهازيج وتراتيل الموت الشاحبة..

لا اله إلا الله.. لا اله إلا الله..

لا اله إلا الله.. محمد رسول الله..

....

يا دويدار.. قد أمك فاقده لك

دمعها كالمطر..

يا رهينة.. قد أمك فاقدة لك

دمعها كالمطر..

....

يا لله رضاك.. يا لله رضاك.. يا لله رضاك..
وارضَ علينا برضاك.. يا لله رضاك..
واحنا طلبناك عظيم الشأن..
يا من تفتح لنا أبوابه!.

طغت على مسامعي كل تلك الأهازيج الماضية وأنا أزاحم.. كان عليّ أن أشقّ بنعش صاحبي الراحل باب المدينة الضيّق إلى مقبرتها العامرة.. وطغت أكثر فأكثر (زوامل) وأهازيج جند الإمام الجديد المنتصر:

يا وادي (الحوبان)[1] توسع..
لجيش سيدي والمدافع..
ثم علا زعيق الجند:
سادتي أنتم نجوم الأرض دايم..
من سعادتكم نزلنا للتهايم..
نرضى الله والإمام:.

....

كان الطبشي العجوز قد أعدّ قبراً صغيراً.. كنت في المقدّمة وعنقي يكاد ينكسر برغم خفة النعش ومن يرقد فيه.. ولكن استمراري في حمل النعش من القصر إلى المقبرة لقلة المستأجرين والطالبين للثواب أرهقني كثيراً.. وقد انحنيت تحت مقدمة النعش.. ورغم تبرّع بعض المارّة لنيل الأجر والثواب فلم يعفني

(١) الحوبان: وادي مشهور في اليمن.

ذلك من حمل المقدمة وإن كان قد ساعدني على أن يظل النعش مرفوعا إلى الأمام والجنازة مستمرة..

كان العرق يتصبب مني بغزارة.. ألهبت عيني..

ووضعنا النعش أمام القبر الصغير لنتلو عليه سورة (يس) من القرآن الكريم كما هي العادة..

لمحت الشريفة حفصة مع بعض نساء القصر وجيرانه جالسات فوق قبور مقضضة.. لم أحاول إعادة النظر إليها.. ولا أدري كيف عرفتها تلقائياً مع العلم بأنها مع النسوة الأخريات يلبسن (الشراشف) السوداء نفسها!.

وأهلنا على القبر ومن بداخله التراب.. ونُصب حجر فوق القبر يدل على أن ساكنه ذكر وليس أنثى!.

وقمت بنزع شجرة عشب أخضر غرستها فوق القبر وصببت عليها الماء!.

أمسكت بكتفي الشريفة حفصة وهي تقول:

- عظم الله لك الأجر.

لم أكن أعرف ماذا يردّ بمثل هذه المناسبة.. كنت أذكر فقط أننا نخرج من القرية في أي جنازة لنصيح بالترانيم الجنائزية.. ثم نقرأ (يس) والفاتحة فوق القبر!.

قالت:

- هل نعود؟.

- أريد أن أجلس قليلاً هنا.

- لماذا؟.

- هكذا أردت.

- لا تغضب.. كلنا حزانى عليه.

- ليس مثلي.

- لا تكن مبالغاً في عواطفك!

- لا وجود للعاطفة في هذا القصر وملحقاته!.

ابتسمت.. وقالت بصوت هادئ:

- لا تكن فظاً.. وجلفا.. ومتطرفا..

- ماذا تقصدين؟.

قالت بهدوء أيضا وهي تربت على كتفي:

- لا أقصد شيئا.. كل ما أقصده.. هو أن نعود إلى الدار لكي نستريح.. وننسى..

- ماذا ننسى؟.

وفقدت هدوءها.. وقد علا صوتها:

- ننسى هذا!. هذا الذي رحل؟. وما فات مات!.

- لن أنساه.

- لن ننساه جميعا.. ولكن ما المبرر لبقائنا وحدنا في المقبرة؟

وتلفّت حولي.. لم أجد أحداً سواها!. واقفة أمامي وصمت المقبرة يخيم ويطغى على حوارنا المتبادل.. ومع ذلك جلست هي على حجر وجلست بجوارها.

كنت أعرف أننا لم نصل إلى حل معا!.

كنت أدبر حالي في قضية فكرت بها منذ أسرجت مشاعل النصر للإمام الجديد!

وهي؟. لا أدري بماذا تفكر!. قلت لها بأنني لن أغادر المقبرة إلا عندما أريد!.

فقالت:

- وقت الغداء قد أزف.. والنائب ربما يحتاج اليك!؟.

وتفوّهت على النائب وعلى الجميع بألفاظ نابية وجارحة لكنها تمالكت أعصابها وقالت:

- هدئ من غضبك.

- لست غاضباً.

- أو متألم أنت؟.

- لا.

- حزين؟.

- ربما!.

....

ومر الوقت وكاد المساء أن يهجم علينا.. قالت:

- ألديك فكرة ما؟.

كان الصمت يطبق على كل أرجاء المقبرة.. والأصيل يكاد ينتهي بشمسه الحالمة المؤثرة المحببة إلى نفسي.. ليت حياتنا كلها أصيل دائم نحلم فيه بمرح الحشاشين وخيال وطموحات السكارى وبحرارة توقد أفكار (المقيلين) بالقات!.

أجبتها:

- نعم.

- الهروب؟.

- نعم.

- لا يمكن!.

- وما المانع؟.

صمتت لحظة ثم قالت بتحدٍ سافر وجادّ:

- لن أتركك.

- هذه المرة سأفلت منك.

- لن تستطيع.

تأملتها قليلا ثم قالت ساخرة:

- هذا منك مجرد طموح لا تقوى على تنفيذه!.

- بل تصميم.

- سأضطر لرميك بالحجارة حتى أدميك.

- حتى ولو بالقنابل.

....

عاد الصمت بيننا مع انتهاء الأصيل وأطباق الليل العابس وسكون المقبرة الموحشة.. فقالت متسائلة:

- إلى أين ستذهب؟.

- إلى الجحيم.

- أسألك بهدوء.. فلماذا تجيب بغضب؟

- هذا طبعي.

- ليس هذا طبعك.. أنت حالي دائما!.

- كان ذلك قبل هذا اليوم.

وعاد الصمت.

اقتربت مني أكثر.. أكثر من أي يوم سابق.. وأحسست

بجسمها المكتنز بكل أنوثة العالم يطويني بحرارته..

كان فمها العذب يتكلم أمام وجهي مباشرة!..

عيناها مركزتان على عينيّ اللتين هربت منهما بعيدا.!.

لم أستطع أن أقابلها وجهاً لوجه.. أن أتكيف حتى بمجرد الوضع معها.. لم استسغ ذلك.. ربما رعباً ورهبة!.

....

قالت وقد مضى الوقت إلى الظلام الدامس وهي تهز كتفيّ تريد أن أواجهها وجهاً لوجه.. وبصوت جاد وحازم:

- خذني معك.

- .. إلى أين؟.

- إلى الجحيم.

- أي جحيم؟.

- الذي ستذهب اليه..

ارتعت لقولها.. كانت جادّة.. وحازمة وبصوتها المبحوح المحببّ إلى قلبي.. قلت بترو وبعقل:

- سيدتي.

وقاطعتني بنرفزة:

- لا تخاطبني هكذا!

- عزيزتي!

- كن رجلا وحدِّدْ موقفك!

- أيّ موقف تريدين مني تحديده؟.

- هل تحبّني؟.

- نعم.

- هل تؤمن أو تثق بأنني أحبك؟.

- .. ربما.. يخامرني الشك في ذلك!.

- قلت لك كن رجلا!.

- سمعت منك هذا من قبل!. مجرد نزوة كلام!.

- ليس كلاماً فارغاً الآن.

- بل هو مجرد كلام!. أعرف من تحبّين.. وما هو طموحك!.

- عدت إلى الطموح مرة أخرى!.

- حقيقة.. لا مناص منها!.

- الحقيقة أنك لا تفهم!.

- والحقيقة أنك تطمحين ولا تحبين!.

تمالكت أعصابها قليلا ثم قالت:

- قلت لك خذني معك.

- كلام فارغ!.

- أنت جبان.

- في نظرك.

وتمالكت أعصابها وتظاهرت بأنها تصلح من شأنها واستدارت نحوي قائلة:

- لن أتركك.

- ستتركيني كرهاً عنك!.

ووثبت قائمة حيث أخذت حجراً من الأرض لتقذفني به.. لكنني كنت قد أطلقت لساقي العنان.. فابتعدت وانهالت خلفي

الحجارة المقذوفة منها.. لم أتوقف برغم إشفاقي عليها..

وعلا صياحها بصوتها المبحوح الذي أحبه.. يطرق مسامعي.. وتلقّفتني ظلمات الجبال المطلّة على الوادي الموحش المنحدر إلى المستقبل المجهول.. وأنا أتوقع صوتها أو حجراً مقذوفاً منها سيقع على ظهري.. لكنني كنت قد قطعت مسافة كافية في طريقٍ جديد مؤدٍ إلى المستقبل.. مخلفا ورائي صوتها المبحوح المحبب إلى قلبي.. وذكرياتي مع صاحبي المرحوم والبورزان والطبشي التي فدغت البغلة رأسه.. وزملائه الجند المنشدين:

يا رهينة قد أمك فاقدة لك..

دمعها كالمطر!!.

....



عن المؤلف والكتاب

من مواليد ١٩٤٣ ، وهو ابن المناضل السياسي المعروف المرحوم مطيع دماج .

- مدير عام في وزارة الخارجية بالجمهورية العربي اليمنية بدرجة سفير .
- عضو في مجلس الشعب التأسيسي ومقرر اللجنة الثقافية فيه .
- صدر له :

طاهش الحوبان (مجموعة قصص)
العقرب (مجموعة قصص)
الجسر (قصص ، تحت الطبع)

هذه الرواية الرهينة أولى رواياته ، يصف فيها الحالة الاجتماعية المتحللة في عهد الإمامة البائد ، في إطار قصة مشوقة تصور «الحريم» بأسلوب متوتر رشيق .